"القبالاه اليهودية من السياق الميتافيزيقي إلى التأويل الميثولوجي الرمزي"

د. عـــلي حسـين قاسـم حســـين (*)

المستخلص:

تهدف هذه الدراسة إلى محاولة فهم الحكمة الخفية من خلال التأويلات الميثولوجية التي تتبناها القبالاه، وذلك عن طريق استخدام لغة الشفرات والتورية والتلميح والمجاز والرمزية العميقة أو الباطنية، بهدف الكشف عن البنية الروحية المحيطة بالإنسان في العالم والقرب من الخالق. وقد ركزت القبالاه على شجرة الحياة القابالية المقلوبة ذات الجذور "الرأس- سماوية" والفروع الأرضية. تعد هذه الشجرة تمثيلًا رمزيًا للنظام والفيض الإلهي؛ حيث كل شيء له مدلول رمزي في القبالاه، لا سيما الحروف والكلمات والأرقام التي تتسم بالروحانية التي تدور في إطار العلاقة بين الإله "عين سوف" والعالم.

الكلمات المفتاحية:

القبالاه - الفيض – عين سوف – الميتافيزيقا – الرمزية – السفيروت – التأويل.

"Jewish Kabbalah from the Metaphysical Context to the Symbolic Mythological Hermeneutics"

Abstract:

The aim of this study is to attempt to understand the hidden wisdom through the mythological hermeneutics adopted by Kabbalah, by using the language of allusion, metaphor, and deep or esoteric symbolism, with the aim of revealing the spiritual structure surrounding man in the world and his relation to the Creator. Kabbalah focused on the inverted Kabbalistic Tree of Life with its "Head - Heavenly" roots and earthly branches. This tree is considered a symbolic representation of divine order and emanation, as everything has a symbolic meaning in Kabbalah, especially letters, words, and numbers, which are characterized by spirituality that revolves around the relationship between the god "Ein Sof" and the world.

Keywords: Kabbalah- Emanation - Ein Sof - Metaphysics - Symbolism - Sefiroth - Hermeneutics.

(*) أستاذ فلسفة الدين المساعد - كلية الآداب- جامعة سوهاج.

القبالاه اليهودية من السياق الميتافيزيقي إلى التأويل الميثيولوجي الرمزي

تعد الديانة اليهودية من أكثر الديانات السماوية غموضًا في بنيتها العقدية، واضطرابا في الأفكار التي دعت إليها فرقها ومذاهبها، فلا نكاد نجد في الفكر اليهودي اتفاقًا على صحة وقداسة الثوابت التي يعتنقونها إلا على سبيل التواتر بداية من أسفار التوراة المختلف على تقسيم أسفارها، وعدد إصحاحاتها ودلالة الألفاظ التي تشكل بنيتها النصية، الأمر الذي كان وراء النقول التي وجهها الفلاسفة العقليون إلى الموروث اليهودي المقدس بوجه عام (التوراة - التلمود- تعاليم الحاخامات).

ويرجع البعض ذلك الاضطراب أو انعدام النسقية إلى الظروف التاريخية والأوضاع الاجتماعية والسياسية للثقافة اليهودية فضلاً عن عدم عناية الحكماء والفلاسفة بتناول مثل هذه النصوص بالتنظيم والتأويل والنقد والاستبعاد الدخيل من المؤثرات الخرافية، والحكايات الأسطورية، والنظريات المتعارضة.

وتعد فرقة القبالاه من أكثر الفرق اليهودية عراقةً وجمعًا لمعظم السمات التي اتسمت بها العقيدة اليهودية فهي ليست فرقة عقدية بالمعني المتعارف عليه في الديانات الوضعية أو السماوية، وذلك لكثرة خلطها بين الفلسفة والموروث الثقافي والحركات الروحية، والنظريات الميتافيزيقية، والكتابات الغيبية التي تتحدث عن العوالم الشاغلة بالكائنات الأخرى مثل الجن والشياطين والعفاريت وخلطها كذلك بين الحاخامات ومصادر علمهم والأنبياء وما بلغوا به من شرائع ناهيك عن العديد من المفاهيم الدينية مثل: الرب، والخالق، والوحدانية وصفاتها، والنبوة والشريعة والتأمل والاجتهاد والتحول والاتحاد والحلول ووحدة الوجود وتناسخ الأرواح وهو ما جعل الوقوف على معالم واضحة لهذه الفرقة من الصعوبة بمكان؛ لذلك كله سوف نتناول هذا الأمر بشيء من الإيجاز والنقد.

إشكالية البحث

إن التساؤل الرئيس الذي يدور حوله البحث: كيف يمكن قراءة التأويلات القابالية المتعددة في سياقها الميتافيزيقي المغلف بالميثولوجيا الرمزية من خلال كتابات القبالاه ومصادرها؟

ومن هذا السؤال تفرعت مجموعة من الأسئلة التي شكلت الإطار العام للبحث لعل أهمها:

- هل هناك نسقية فلسفية للقبالاه اليهودية من أجل فهم مضامينها؟
- ما أهم جذور القبالاه وأطوارها، وأبعاد الفلسفية؟
- ماذا عن العالم الميتافيزيقي المتمثل في بناء وبنية شجرة الحياة القابالية، وفكرة الانبثاق أو الفيض الإلهي؟
- ما الفرق بين الإله القابالي، والإله يهوه، والإله إلوهيم Elohim؟
- ما دوافع التأويل عند القبالاه، وما أهم التأويلات والتحليلات التي قدمتها القبالاه من خلال مصادرها المختلفة ولاسيما الزوهار؟
- هل يمكن التعويل على التأويل القابالي الأسطوري الرمزي في فهم نصوص التوراة والتلمود؟
- كيف استطاع الفكر المعاصر الكشف عن عنصرية القبالاه وأهم الانتقادات التي وجهت لها؟

منهج البحث

للإجابة عن هذه التساؤلات سأعتمد على المنهج التحليلي في عرض المفاهيم وتحديد معاني المصطلحات التي عولت عليها القبالاه إلى جانب المنهج المقارن الذي يوضح مواطن التأثير والتأثر بينهم وبين غيرهم من أصحاب الرؤى والمعتقدات المختلفة، وكذلك المنهج التاريخي من حيث رد الأفكار والمصطلحات إلى أصولها الأولى، وأخيرًا المنهج النقدي في تقييم أفكارهم، واسهاماتهم في ميدان فلسفة الدين.

محتوى البحث: سوف يتم تقسيم البحث إلى ثلاثة عناصر أساسية:

أولاً: فرقة القبالاه اليهودية: جذورها وأطوارها، وأبعادها الفلسفية.

أ- مفهوم القبالاه .
ب- جذور القبالاه.
جـ- الأطوار التي مرت بها القبالاه .
د- الأبعاد الفلسفية للقبالاة.

ثانيًا: العالم الميتافيزيقي عند القبالاه

أ- شجرة الحياة القابالية والسفيروت.
ب- صفات الإله القابالي عين سوف وعلاقته بالعالم.
جـ- الإله القابالي عين سوف وتوتر الخطاب القابالي.

ثالثاً: التأويل والإرهاصات الأولى للتفكيك عند القبالاه.

أ- تأويل النص المقدس بين العهد القديم ورمزية الزوهار.
ب- تأويل القبالاه لخلق العالم.
جـ - تأويل الشر والشيطان عند القبالاه.
د- عنصرية القبالاه في الفكر الحديث وأهم الانتقادات التي وجهت إليها.

أولاً: فرقة القبالاه اليهودية: جذورها وأطوارها وأبعادها الفلسفية

١] مفهوم القبالاه: هي الحكمة السرية لمعتقد يهودي باطني، وتسمي في العبرية قبالاة(Q B L H)، ويشتق المصطلح من الجذر العبري المحاكي للكلمة الإنجليزية (Q I B E L – Q B L): ويعني المتلقي للتعاليم الشفهية العقدية، والرياضات الحدسية الروحية التي تعينه على فك الرموز والإشارات الروحية الباطنية. ولقد اتخذت القبالاه مجموعة من الأشكال في الترجمات الإنجليزية بأحرف مختلفة (Cabala -Kabalah- Kabbala-Qabalah).وهناك من يري أن الكلمة الأخيرة (Qabalah) هي الأكثر انسجاما مع الكتابات العبرية للكلمة ولنظام الفلسفة الدينية أو بالأحرى لنظام الثيوصوفية (Theosophy) التي مارست تأثيرها غير العادي لمئات السنين على التطور العقلي اليهودي[١] وللقبالاة أنواع منها : القبالاه العملية المتعلقة بالسحر والكهانة، والقبالاة الحرفية والقبالاة الشفهية[٢] .

---

(1) The Kabbalah unveiled: containing the following books of the Zohar: the book of concealed Mystery, the greater holy assembly, the lesser holy assembly, translated into English from the Latin versions of knorr von resenroth by .SL. Mac Gregor Mathers and collated with the original chaldee and Hebrew text, the sophical publication, Co. N.Y, 1912 paragraph 3-4, pp, 24, paragraph, 5 P. 4.

(2) Ibid, paragraph 8, p. 6.

كذلك تشير معظم الموسوعات والمراجع المتخصصة في القبالاه أنها مشتقة من الأصل اللغوي العبري المحاكي للكلمة الإنجليزية (Le- Kabel) لي-كابل أو (Mekubal) ميكوبال : وتعني أن يتلقى اليهودي القابالى تراثا أو شريعة شفهية لتعاليم باطنية من أسرار الشريعة من جانب حاخامات كبار ومتلقين صغار، ولعل المقصود بالتلقي هنا هو تلقي العالم الروحي ومفاهيمه وتصوراته من الجوهر الإلهي سواء كان نصًا مقدسًا أو تجارب صوفية كما تؤمن بتناسخ الأرواح حيث اعتقدوا أن روح المعلمين تنتقل من المعلمين إلى الحاخامات، وتؤمن أيضا بطابع حلولي بمعني أن الإله يتحرك بداخل الإنسان بطريقة خفية غامضة، ومن ثم يعتقدون أن بإمكانهم الحصول على المعرفة الحقيقة لطبيعة الإله والعلاقة به، وفهم العملية الداخلية الغامضة. ومن خلال هذه المعرفة يمكن تحقيق أعظم قدر من التقارب الإلهي[٣]. ولقد تأثرت طائفة السيخ الهندية Sikhism (التي تعني حرفيًا التلميذ أو المتعلم) بهذا المعتقد، فآمنت بعقيدة التناسخ والعبادة الباطنية، وآمنت بأن الإله محايث في كل مخلوقاته، هذا الإله الذي لا يمكن معرفته رغم أنه حاضر في كل مكان وهو الوحي الذي يتجلى في الخلق وآمنت بالسعي نحو الخلاص[٤].

ومن هذا المنطلق فإن القبالاه تمثل لدي معتنقيها درجة أعلى من الرياضات الروحية في التلقي، وذلك لأنها تستقبل الإلهام الإلهي المباشر في صورة كلام وحروف خاصة بكبار الحاخامات الذين يقومون بتوصيل ما تلقونه للطبقات الأدنى من طلابهم - الذين هم بمثابة حاخامات صغار- وذلك عن طريق الإله المتقمص أو الحال (الذي يحل في روح الحاخام فيقوم بتلقينه)، ومن ثم فإنهم يعتقدون بقدرتهم على الوصول والحصول على المعرفة الحقيقة في ذاتها.

إن حكمة القبالاه من وجهة نظر أتباعها هي محاولة للكشف عن البنية الروحية المحيطة بنا في العالم، والعلاقة مع الآخرين والاقتراب من الخالق عن طريق الوصول إلى أعماق جديدة للروح. فإذا كان العلم يشرح آليات الحياة المادية فهم يعتقدون أن القبالاه توضح الغرض من الحياة . فحكمة القبالاه لديهم تعد الوسيلة التي تمكن القابالى من تغيير نواياه من الرغبة في إرضاء الذات وهو ما يعرف بالأنانية إلى الرغبة في ارضاء الطبيعة (الخالقة) – وأن شئت فقل الطبيعة الطابعة على حد تعبير "سبينوزا" (Spinoza) (١٦٣٢-١٦٧٧) – وهو ما يعرف بالإيثار (Alturism). فهم يعتقدون أن الأزمة العالمية الحالية هي أزمة رغبات، أي أنه عندما يتم استخدام حكمة القبالاه لإرضاء أعظم رغبة

---

(3) Rabbi Geoffery W. Dennis: What is Kabbalah, what is Kabbalah? Reform Judasim org, Jewish life in Your life, union for freedom Judaism, http://reformjudaism.org.belifs,practices/spirituality/what- Kabbalah,2024

وانظر:

Michael Laitman: The path of Kabbalah, laitman Kabbalah, Kabbalah publishers, Toronto, Canada, 2005, p. 151.

وانظر:

-Pinchas Giller: Kabbalah: A guide for perplexed, Bloomsbury, T& T. Clark, London, 2012, pp. 3-4.

(٤) جفري بارندر: المعتقدات الدينية لدى الشعوب، ترجمة د/ إمام عبدالفتاح إمام، مراجعة د/ عبدالغفار مكاوي، سلسلة عالم المعرفة، ع(١٧٣)، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت ١٩٩٣م، ص ١٦٢- ص ١٦٥.

تتمثل في الروحانية فإن المشاكل ستحل تلقائيًا[٥] كما يعتقدون أيضا أن النور الذي يحصل عليه القابالى أثناء دراسته لها يفوق بكثير دراسة أي كتب مقدسة أخرى[٦] وربما يكون القديس "أوغسطين "في المسيحية متأثرًا بذلك في محاورة المعلم.

وتضيف القبالاه بأن الرغبة في الروحانية ليست استثناء، فإذا قررت مجموعة من الناس أن تصبح مثل الخالق فلا يمكن لأي شيء أن يقف في طريقهم حتى الخالق نفسه[٧] .

ومن الملاحظ أن القبالاه تعتمد على التلقي السماعي من خلال الحاخام، ومحاولة الفهم من جانب تابعية دون أن يكون هناك سجلا مكتوبا بهدف التوصل إلى اسرار الكون والإله من خلال الأسرار التوراتية الخفية التي يتم عن طريقها التواصل مع النور الروحي، وتحقيق خلاص الإنسان.

واذا كان محور اهتمام القبالاه هو الحصول على المعرفة الباطنية، فإن السؤال المطروح ما أهم الطرق التي يسلكها القابالى من أجل الحصول عليها؟

تعتقد القبالاه أن هناك ثلاث طرق لابد أن يسلكها القابالى : (أ) طريقة تأويل النصوص المقدسة من أجل الوقوف على المعاني الخفية التي تنطوي عليها النصوص (ب) طريقة النقل الشفوي للتعاليم أو التقاليد من الحاخام أو المعلم القابالى الذي وهبه الخالق روح مساعدة الآخرين لأولئك الذين يفتقدون البصيرة الروحية من أجل تنمية استعداداتهم الروحية (جـ) من خلال الوحي المباشر الذي قد يشمل زيارة الملاك أو النبي إيليا (Elijah) أو امتلاك الروح، أو أي تجربة أخري تتجاوز العقلانية[٨]

وعلى الرغم من اهتمامها الأساسي بالميتافيزيقا أو الاشياء التي تتجاوز نطاق العالم الحسي فإن القبالاه الاستقصائية ليست معادية للعقل، فكل التقاليد الصوفية اليهودية الباطنية تتبني لغة الأفكار الفلسفية وحتى العلمية في عصرها، وتتوسع فيها، كما أن التجربة الصوفية عندهم لقاء مباشر حدسي مع إله قريب ولكنه خفي، وهو ما عبر عنه الفيلسوف اليهودي "ابراهام جوشوا هيشل" (A.J.Heschel) (١٩٠٧-١٩٧٣) قائلاً أن الصوفية يريدون التذوق الكامل لقمح الروح قبل أن تطحنه أحجار رحي العقل[٩].

ويذهب الفيلسوف الأمريكي بينشاس جيلر (Pinchas Giller) (١٩٥٣-) إلى أنه من المفيد للغاية أن نفكر في القبالاه بوصفها الميتافيزيقا الرسمية لليهودية، وجوانبها التي تكمن وراء الواقع الحالي حيث لا يمكن إثباتها عن طريق المنطق أو أدلة الحواس البشرية، فالموضوعات المباشرة للقبالاة تتمثل في الروح ودرجاتها والحياة الآخرة، وبنية السماء، والعالم السفلي، وخلق العالم، وما سيحدث في نهاية الزمان، كما تهتم بعالم ما قبل : أي خلق العالم ،وعالم ما فوق السماء بكل مجده حيث العرش الإلهي، وما تحت العالم السفلي وهو عالم مرعب ومتنوع مثل عالم "دانتي" (Dante Alijhiry) (١٢٦٥-١٣٢١) فوجود الفردوس والجحيم ضمنيا فكرة مفادها أن أرواح الأحياء محكوم عليها

(5) Michael Laitman: Kabbalah: Revealed, Laitman Kabbalah publisher, U.S.A, 2007, p.52.
(6) Michael Laitman: The path of Kabbalah, op.cit,pp. 20-25.
(7) Michael Laitman: Kabbalah Revealed, op.cit, p. 139.
(8) Rabbi Geoffery W. Dennis, op.cit, http://Reform Judaism.org.
(9) Ibid, http://Reform Judaism.org.

بالذهاب إلى مكان آخر. أما حديث القبالاه عن "ما بعد" فيتلخص في العمل نحو إصلاح العالم الذي يتجسد في مجيء "الماشيح اليهودي[١٠]"

ويدعي اتباع القبالاه أن التوراة في مجملها هي نفسها حكمة القبالاه التي ندرسها الآن، ولكنها كتبت بلغات مختلفة، وصور متعددة للتعبير، وكقاعدة هناك أربع لغات للتعبير: لغة التوراة نفسها، ولغة الأجادا(Aggadah) أي الأساطير والروايات الشعبية التلمودية والأقوال المأثورة التي تتشابك مع النصوص الدينية، ولغة القواعد أو الأحكام التي يستخدمها التلمود، ولغة القبالاه ذاتها التي تستخدم الرسوم والصيغ والمصفوفات،[١١] ويسلمون بأن كثرة هذه النقول من لغة إلى أخري يؤثر في العملية الباطنية، وفهم الجيل الحالي للحقيقة الربانية والأسرار الإلهية .

كما تستخدم القبالاه قواعد رياضية بحته من أجل التعبير عن الظواهر الروحية، وهناك طرق متعددة لتصوير احساسنا ومشاعرنا لكن لغة القبالاه من وجهة نظر اتباعها هي الأكثر دقة وعملية على الاطلاق . وعلاوة على ذلك فقد استخدموا النغم والترانيم لنقل الاحاسيس الروحانية ولعل من أبرزهم "يهودا أشلاج Y. Ashlag (١٨٨٤-١٩٥٤) وابنه" باروخ أشلاج" B. Ashlah (١٩٠٧-١٩٩١)، وهذه اللغات في مجملها بالإضافة إلى الترانيم ابتكرها علماء القبالاه الذين بلغوا الروحانية من أجل إخبارنا بكيفية الخلق[١٢] ولعلهم متأثرون في ذلك بطرق التواصل المصرية القديمة مع "أمون" و"رع"، و"آتون".

ومن الملاحظ أن الطقوس الدينية الأساسية للقبالاه لا تختلف كثيرًا عن طقوس اليهودية باستثناء التمائم والخيوط الحمراء والمياه المقدسة كل ذلك يعد أدوات للعصر الجديد لا علاقة لها بأسلوب حياة القابالليين الأصليين[١٣].

وقد لا نبالغ كثيرًا إذا قلنا بأنه إذا كانت القبالاه- كما يدعي أتباعها- بأنها هي الحكمة الشفهية؛ فإن التلمود في الأساس- كما يدعي اليهود – شريعة شفهية نزلت على "موسى" في جبل الطور فإن القبالاه هي جزء اساسي من التلمود لأنها بنيت أساسًا على تعاليم تلموديه .

ب – جذور القبالاه إن المتأمل لأحد مصادر القبالاه وتحديدا كتاب كشف أسرار القبالاه (The Kbbalah Unveiled) الذي يسمونه كتاب التوازن بين المتناقضات، يجد قصة ميلاد القبالاه ونموها ونضجها في أن الله ذاته قام بتعليمها لمجموعة مختارة من الملائكة، حيث استطاعت هذه المجموعة تأسيس مدرسة ثيوصوفية في الفردوس[١٤] ثم تلقي "آدم" تعاليمها كهبة من الله، وورثها للأنبياء شفاهة عبر الأجيال، وتدعي القبالاه أن "آدم" عندما كان موجودا في جنة عدن أنزل الله عليه كتابًا بيد الملاك "رازائيل" (Raziel) الملاك المسؤول عن الأسرار الإلهية المقدسة، وقد تضمن هذا الكتاب نقوشا سماوية وطلاسم انطوت على الحكمة المقدسة واثنين وسبعين فرعًا من الحكمة ثم شرحها لإظهار كيفية تكوين ستمائة وسبعين نقشًا من الاسرار العليا.

---

(10) Pinchas Giller: op.cit, pp. 1-3.
(11) Michael Laitman: the path of Kabbalah, op.cit,p. 243.
(12) Ibid, pp. 243- 245.
(13) Pinchas Giller: op.cit, p. 8.
(14) The Kabbalah unveiled: op.cit, paragraph 7, p. 6.

وفي وسط الكتاب كانت هناك كتابات سرية تشرح ألف وخمسمائة مفتاح لم تكشف حتى للملائكة المقدسة، وكأنت جميعها محفوظة حتى وصلت إلى يدي "آدم". وعندما حصل عليه "آدم" اجتمعت حوله جميع الملائكة المقدسين لسماع قراءته وعندما بدأ هتفوا قائلين :"ارتفع أيها الرب فوق السماوات، وليكن مجدك فوق كل الأرض" مزمور ٦٧:١٢ عندها ارسل الملاك المقدس هاردارنئيل (Hardarniel) يقول له: "آدم" "آدم" لا تكشف عن مجد السيد لأن الامتياز قد أعطي لك وحدك وليس للملائكة لكي تعرف مجد سيدك" لذلك احتفظ به سرًا حتى غادر جنة عدن، ويدعي أتباع القبالاه أن "آدم" قام بدراسة هذا الكتاب – هناك – جيدا واستخدمه في الكشف عن أسرار سامية لم تكن معروفة[١٥].

لكن عندما عصي "آدم" أمر سيده فقد الكتاب، وبدأ يتحسر ويضرب على صدره ويبكي، ثم دخل في نهر جيحون (Gihon)حتى غطس إلى عنقه، فصار جسدًا متجعدًا، ووجهًا شاحبًا عندها اشار الله إلى الملاك رافائيل ليعيد إليه الكتاب فدرسه بقية حياته، ثم ورثه "آدم " لابنه" شيث" أو "سيت" (Seth) والذي نقله بدوره إلى "إدريس" (إخنوخ-Enoch) ثم "نوح" حتى وصل إلى "إبراهيم" الذي تعلم منه كيفية ادراك مجد سيده[١٦] أي الإله الخالق وبعد سقوط" آدم" قامت الملائكة بكل لطف بنقل العقيدة السماوية إلى الإنسان المتمرد أو العاصي على الأرض لتزويد خلاياه بوسائل العودة إلى نقائها الاصلي المتمثل في النبل والسعادة حتى يتمكن من استعادة دخول الجنة [١٧].

واذا انتقلنا من" آدم" إلى "إبراهيم" نجد ادعاء القبالاه بأنها انتقلت إلى "إبراهيم" صديق الله الذي هاجر إلى مصر وسمح لجزء من هذه العقيدة الغامضة بالتسرب، وبهذه الطريقة حصل المصريون على بعض المعرفة بها واستطاعت الامم الشرقية الأخرى إدخالها في أنظمتها الفلسفية[١٨].

ويذهب الفيلسوف الأمريكي القابالي "مايكل لايتمان" (M.Laitman) (١٩٤٦-) إلى أن ابراهيم هو أول عالم قبالى نظرًا لتساؤلاته عن عظمة الوجود الإلهي، فلم يكتف بتعاليم القبالاه وإنما بحث فيها بعمق وقام بتعليمها للآخرين [١٩]، وذلك من خلال المحاورة التي دارت بين "إبراهيم" والرب.

ثم انتقلت إلى "موسى" حيث أرجع "مائير بن جباي "(Meir ibn Gabbai)(١٤٨٠- ١٥٤٠) التقليد القابالي إلى سيناء مدعيًا أن أسرار "الزوهار" قد أعطيت لـ "موسى" مع التوراة المكتوبة[٢٠]، وقد استطاع "موسى" أن يتعلم الحكمة المصرية في أرض ميلاده بمصر وأصبح أكثر اتقانا لها أثناء تجواله في البرية، فهو لم يكرس لها ساعات فراغه طوال الأربعين عاما التي قضاها في مصر فحسب بل تلقي فيها دروسًا من أحد الملائكة، وبفضل امتلاكه للقبالاه – كما يدعون – استطاع حل الصعوبات

(15) William Richard Ploplis: The Great name of God: A study of the Element of Kabbalah, the Loyola university, PhD in philosophy, Chicago, 1981, p. 14.
(16) Ibid, p. pp. 14-15.
(17) The Kabbalah unveiled: op.cit, paragraph 7, p. 6.
(18) Loc. Cit.
(19) Michael Laitment: Kabbalah Revealed, op.cit, pp. 19-23.
(20) Arthur Green: in his introduction to the Zohar, Translation and Commentary by Daniel C. Matt, Vol: 1, Stanford university press, Stanford California, 2004, P. LXXIII.

وتسوية النزاعات في بني إسرائيل على الرغم من الحروب، والبؤس المتكرر لهم، فقد وضع مبادئ هذه العقيدة السرية في أسفار أربعة من الأسفار الخمسة أي إنه حجبها في سفر التثنية، ثم قام موسى بنقلها إلى "يشوع" وتدريب الشيوخ السبعين على أسرار هذه العقيدة فنقلوها من يد إلى يد إلى الكهنة والأنبياء والحاخامات حتى وصلت إلى" داود" و"سليمان" اللذان كانا أكثر المتدربين على علم القبالاه ومع ذلك لم يجرؤ أحد منهما على كتابتها[٢١]. على الرغم من نظرة القبالاه إلى الملك "داود" كنموذج قابالى لأشهر زعيم توراتي بوصفه الحبر الأعظم[٢٢].

واذا عدنا إلى "إبراهيم" وتركيز القابالاه الشديد عليه نجد أنهم ينسبون إليه تأليف سفر يتسيراه (Yezirah) (عن الخلق أو نشأة الكون) الذي يعد بإجماع الكثيرين أول كتاب ميتافيزيقي وفلسفي – على الاطلاق – كتب بالعبرية فهو يحلل رمزية الأبجدية العبرية بوصفها هبة إلهية إلا أن المفكر اليهودي الأمريكي "ايزيدور كاليش" (Isidor Kalisch) (١٨١٦-١٨٨٦) الذي قام بترجمة الكتاب أكد على أن التقليد الذي ينسب الكتاب إلى "إبراهيم" يعد جزافيًا خرافيًا وفي غير محله لكن الفكرة التي ترد نسخه إلى الحاخام اكيفا بن يوسف (Akiva ben Yosef)(٥٠م–١٣٥م) الذي عاش في بداية القرن الثاني الميلادي تقريبا فكرة مقبولة إلى حد ما[٢٣].

وذهب "كاليش" أيضا أن هناك من رد الكتاب إلى العصر الجيوني (٧٠٠-١٠٠٠) وأنه تم تأليفه في فترة ما بعد التلمود – في حين صورا كلا من الفيلسوف اليهودي "سعديا جاون" (Saadiah Gaon) (٨٨٢-٩٤٢)م الشهير بـ سعديا الفيومي، والفيلسوف اليهودي "يهودا هاليفي " (Judah Halevi) (١٠٧٥-١١٤١) كتاب" يتسيراه" على أنه عمل قديم جدا يصعب تحديد زمن نسخه أو اسم ناسخه على الرغم من الأبحاث العميقة التي أجراها بعض علماء الآثار حيث رأوا أن الكتاب كان معروفا في القرن الثاني وبداية القرن الثالث الميلادي[٢٤] .

وفي العصر الوسيط ساد اعتقاد بأن مصطلح القبالاه من ابتكار الفيلسوف اليهودي "سليمان بن جيبيرول" (Solomon Ibn Gabirol) (١٠٢١-١٠٥٨) وقد كان هذا الاعتقاد محل جدال في الأوساط الاكاديمية، كذلك كانت هناك بعض التكهنات أن الفيلسوف المسيحي" ريمون لول" (Ramon Lull) (١٢٣٥-١٣١٥) من القبالين لكن لم يقطع في ذلك[٢٥].

واذا ما عدنا إلى سفر يتسيراه نجد أن هناك من ذهب إلى أن هذا السفر هو نتاج القرن الأول والثاني قبل الميلاد ويحمل آثار من لغة وفلسفة "آرسطو" (Aristotle)

---

(21) The Kabbalah unveiled: op.cit, paragraph 7, p. 6.
(22) Michael Laitman: Kabbalah revealed, op.cit, p. 22.
(23) Isidor Kalisch: in his preface to sepher Yezirah: A book on creation or the Jewish Metaphysics or remote antiquity, Trans. by Rev. Dr. Isidor Kalisch, L. H. Frank and Co. publishers, Supreme Grand lodge of the Ancient Mystical order Rosae Crucis, California, 2015, p. 8.
(24) Ibid, pp. 7-8.
(25) Antony J. Elia: An Historical Assessment of the narrative uses of the words Kabbalah, Cabala, Qabalah, theological liberarianism, Vol: 2, No. 2, November, December: op.cit, p. 104.

(٣٨٤ ق.م – ٣٢٢ ق.م)، وهناك من يري أنه نتاج القرن الثالث والسادس الميلادي وأنه من تأليف أحد اليهود التابعين لـ "فيثاغورث"[٢٦] (Pythagoras) (٥٨٠ق.م – ٥٠٠ ق.م).

وفي الحقيقة أن المتأمل لكتاب "يتسيراه" يجد أنه يشكل حلقه في سلسلة من التأملات النظرية القديمة للفلاسفة الذين سعوا جاهدين للوصول إلى الحقيقة عن طريق الاستدلالات البديهية لدرجة أنهم أرادوا البحث فيما وراء الطبيعة، وخيل لهم أنهم بإمكانهم النفاذ إلى أسرار الطبيعة، ومن هنا يضع الكتاب يد القارئ على السبب الأول والأبدي لأصل الكون ومركزه[٢٧].

ويذهب كتاب أو "سفر يتسيراه" إلى أن الكون خلق بواسطة ثلاثة أشكال من التعبير : الأرقام، والحروف، والكلمات ويقال أيضا أن كلمة الله الموجودة في الصفات تعرف أيضا بالأعداد أو الأرقام، وأن الصوت والروح والكلمة تشكل جميعها الروح القدس وأن كل خلق سيأتي قد تشكل وسيتم تشكيله من قبل الخالق بواسطة الحروف الاثنين والعشرين من الأبجدية العبرية والتي هي هبة من السماء[٢٨].

وإذا ما انتقلنا إلى الأطوار التي مر بها معتقد أو فرقة القبالاه نجد أنها تتمثل في **أربعة أطوار** أساسية:

ج – الأطوار التي مرت بها القبالاه :

أ- الطور الأول (قبالاه الزوهار[٢٩])(Zorhar)ويبدأ هذا الطور من القرن الثاني الميلادي حتى القرن الثاني عشر الميلادي حيث بدأ في شمال إسرائيل وانتقل إلى بروفنس Provence (جنوب شرق فرنسا) ثم انتقل إلى إسبانيا، وركز هذا الطور على تأويلات لأسفار "موسى" الخمسة، والكشف عن المعاني الرمزية الواردة في الوصايا العشر، والروايات الموجودة في هذا الأسفار.

---

(26) William Richard Polplis: op.cit, p. 104.

(27) Isidor Kalish: op.cit, p. 9.

(28) William Richard Ploplis: op.cit, p. 100.

[٢٩] ومعناه بالآرامية الإشراق أو النور، وبحسب الزعم القابالى لتوارث هذا المعتقد عبر الأجيال فقد ادعوا أنه في القرن الثاني الميلادي تلقاه –أي الزوهار- الحاخام "شيمون بار يوحاي" (Shimon Bar Yochai)، وشهرته "الراشبي" (Rashbi) - الذي تتلمذ على يد الحاخام " اكيفا " – حيث نظر إليه من جانب أتباعه بأن روح "موسى" قد حلت فيه الحكمة السماوية وتلقي تعاليمها، وقد تكفل الحاخام ابا (Abba) بمساعدة الراشبي ومما يروي عنهما في كتاب "الزوهار" أنهما قد بلغا مرتبة النبي " إيليا "، وأن "النبي إيليا" نفسه قد زارهما في كهفهما وعلمهما التوراة وهذا يعني أن سلطة "الزوهار" مستمدة من السماء، وقد أوصي "الراشبي" بتوصيل ما تلقنه من "إيليا" ومن ثم قام بتعليم ابنه وثمانية آخرين ما تلقاه لنسخ الزوهار، فقد كان الحاخام" الراشبي "يملي ما جاء في "الزوهار" إلى الحاخام "أبا" الذي نسخه بأسلوب ملغز يغلب عليه الرمزية التي لا يفهمها إلا الصفوة من حاخامات القبالاه الروحانيين حيث مكثوا جميعا للتأمل في كهف صغير في قرية ميرون شمال إسرائيل، وبعد أن تمت كتابته قاموا بإخفائه لمدة ألف ومائة عام إلى أن يحين العصر المناسب لإفشائه، ذلك لأن البشرية في ذلك الوقت لم تكن مهيأة لذلك ويصعب عليها استيعابه لأنه كان مكتوبا لجيل يتسم بقسوة القلب وتراكم الذنوب كذلك فقد أدرك "الراشبي" أن وراء القصص التوراتية حقائق عميقة خفية تحمل اجابات للأسئلة التي حار العقل في الاجابة عنها. وانظر: =

= (Michael Laitman: The Zohar, Laitman Kabbalah publishers, N.Y, 2009, pp. 7-17).

ويعد كتاب "الزوهار" سلسلة من الوثائق التي تغطي مجموعة واسعة من الموضوعات المتعلقة بالتعاليم والشروحات والتأويلات الباطنية للآيات الواردة في أسفار "موسى" الخمسة، وكذلك الأوصاف الثيوصوفية للتدابير الربانية في العلم الإلهي[٣٠]. وهناك من نظر إلى "الزوهار" بوصفه الجزء الخفي من التوراة يقول "مايكل لايتمان "مع أننا حصلنا على التوراة كاملة إلا أن الجزء الخفي منها لم يكتب الا في الأجيال الأخيرة، فقد كان التلمود ضروريا للحفاظ على الوصايا، ولذلك تم نشره على الفور في حين أن "الزوهار" لم يكن ضروريا للعامة فقد أخفاه القبالون إلى أن حان الوقت المناسب للكشف عنه"[٣١].

وعلى الرغم من نسبة كتاب "الزوهار" إلى شيمون بار يوحاي" الراشبي" فإن هناك اختلافًا بين مفكري القبالاه: فقد ذهب الفيلسوف الألماني القابالى "جيرشوم شوليم"(Gershom Scholem) (١٨٩٧-١٩٨٢) وآخرون إلى أن الذي قام بنسخه اليهودي الأسباني "موسى الليوني" (Moses De Leon) (١٢٣٨-١٣٠٥م)، بالآرامية والعبرية في إسبانيا، وقد حظي "الزوهار" بالتبجيل والتقديس على نطاق واسع بوصفه نصًا مقدسًا ذا قيمة لا تقبل الجدل فهو وسيلة لتحقيق غاية وهي الاتحاد الصوفي بـ الله [٣٢]. وتتفق معه في ذلك المفكرة الأمريكية "مارجريت سميث" (Margaret Smith) حيث نظرت إلى "الزوهار" كعمل صوفي يهودي يصف نشأة الكون المعقدة والغامضة بخصوص العالم الآخر الذين اشادوا به بوصفه خيالاً مقدسًا وقد نسخه موسى الليوني ومجموعة من أتباعه في قشتاله (أسبانيا) في أواخر القرن الثالث عشر[٣٣]. وعلى الجانب الآخر فقد ارتد اليهودي القابالى الكبير "يهودا أشلاج" بـ"الزوهار" إلى "الراشبي" وليس إلى مجرد عالم قابالى مثل "موسى الليوني" الذي يقدره ويكن له كل احترام[٣٤].

أما عن اللغة الأصلية التي كتب بها "الزوهار" فهي مليئة بالتعبيرات الغامضة والتورية والتراكيب الغريبة والمصطلحات المربكة وآثار من العبرية القديمة واللغة القشتاليه (Castilian) في العصور الوسطي . وقد غلب على "الزوهار" الشعر المنثور والدلالات المتعددة المستفيضة المركبة بطريقة تجعل من الصعب في كثير من الأحيان تحديد المعني الدقيق لعبارة ما؛ لما في الموضوع من غموض ومراوغة لدرجة أنه يتعذر معه الوصف، فالكلمات ليس بها سوي إيحاءات مطلسمة، فقد يذكر أمرًا غامضًا ثم ينفيه على الفور وأحيانا تصادف تناقضات لفظية مثل كلمات قديمة – حديثة في إشارة إلى الطبيعة المزدوجة لأسرار "الزوهار" التي كتبت حديثا لكنها تنسب إلى مصادر قديمة

---

(30) Colin Low: A depth of Beginning, Notes on Kabbalah, www.religion studies. Ir/en/node/8/677, Deph-beginning-notes Kabbalah, 2001.
(31) Michael Laitman: the path of Kabbalah, op.cit, p. 309.
(32) Gershom, Scholem: on the Kabbalah and its Symbolism, Translated by Ralph Manheim, Schocken Books, New York, 1969, p .. وانظر
-Arthur Green: op.cit, p. LII. وانظر:
-Rabbi Geoffery W. Dennis: op.cit.
(33) Margaret, Gurewitz Smith: Marriage, Mother hood and the matriachs in the Zohar, An Essay in Jews and Gender, ed, by Leonard J. Greenspoon, Purdue university press, 2021, p. 77.
(34) Michael Laitman: The Zohar, op.cit, pp 7-12.

وهي تمثل أول انبثاق معرفي إلهي قريب الشبه لضوء الشمس عندما يقتحم الكهف المظلم حيث المريدين[٣٥]. إن هذه الصورة أقرب لصياغة افلاطون (Plato) (٤٢٧ ق.م-٣٤٧ ق.م) في الانتقال من المعرفة الظنية إلى اليقين .

وقد شبه أول حاخامات "إسرائيل إبراهام كوك" (A.Kook) (١٨٦٥- ١٩٣٥) كتاب "الزوهار" بسفينة "نوح" فإذا كان كل من دخل السفينة صار بمأمن من الغرق وحصل على النجاة فهكذا الحال فإن كل من يدخل إلى "الزوهار" يجذبه كما يجذب المغناطيس الحديد، ويحظى بسر النور الذي ينقذ روحه ويطهرها، فهذا الكتاب ليس كتابًا يمكن من خلاله بلوغ الروحانية فحسب بل كتب لأولئك الذين اجتازوا الروحانية بالفعل[٣٦]،أي عتبة العرفان.

ومهما يكن من أمر فإن "الزوهار" يمثل تطور الفلسفة اليهودية، والرمزية الأسطورية إلى مستوي جديد من الثراء والتعقيد والتأثير التاريخي[٣٧].

وعلى الجانب الآخر نجد "دانيال سي. مات[٣٨]" (Daniel C.Matt) الباحث في القبالاه يذهب إلى أن كتاب "الزوهار" محاكي لما جاء في سفر دانيال ٣:١٢ (ويضيء الحكمة (أي شعب الله) كضياء الجلد وكذلك الذين ردوا كثيرين إلى البر يشعون كالكواكب إلى مدي الدهر) فهو مثل النور أو مثل بشرة الإنسان التي تخفي جوهر النفس الحادية للمعرفة السرمدية الابدية، ومن ثم فإن قراءة ما وراء السطح يحتاج إلى مهارة طبيب وعقلانية أديب.

ب- الطور الثاني: واذا ما انتقلنا إلى الطور الثاني الذي يمكن أن نطلق عليه طور النضج (القبالاة النبوية) حيث يبدأ هذا الطور من النصف الثاني من القرن الثاني عشر حتى النصف الثاني من القرن الرابع عشر. أما عن أبرز اهتمامات القبالاه النبوية فقد ركزت على مجموعة من الأنبياء أمثال "آدم"، و"نوح"، و"إبراهيم"، و"إدريس"، و"إسحاق"، و"يعقوب"، و"يوسف"، و"موسى"، وهارون، و"يوشع"، و"داود"، و"سليمان"، و"صموئيل"، وسفر المزامير بأكمله الذي نظرت إليه ليس بوصفه يمتلك معني داخليا، بل يمتلك ايضا قيمة تعويذيه[٣٩].

ويمثل القرن الثالث عشر عصر نضج القابالاة فعلاوة على "الزوهار" وجدنا الأعمال الرئيسة للتقاليد القابالية مثل: "سفر يتسيراه"، وكتاب ""الباهير"[٤٠](Bahir)

---

(35) Daniel C. Matt: in his Translation and introduction to the Zohar, Vol. one, op.cit, p. XIII.

(36) Michael Laitman: The Zohar, op.cit, pp. 10-11.

وانظر: =

= -Michael Laitman: Kabbalah for Beginners, 4th ed., Laitman Kabbalah publishers, U.S.A, 2007, pp. 5-6.

(37) Joseph Dan: Gershom Scholem and the Mystical Dimension of Jewish History, NYU, Press, New York, 1987, p. 180.

(38) Daniel C. Matt: op.cit, p. IX.

(39) Margaret Gurewitz Simth, op.cit, p. 77.

(٤٠) الباهير هو كتيب صغير مكون من ثلاث وأربعين صفحة عبارة عن تعليقات صوفية على ما جاء في سفر التكوين، ويشرح الأهمية الصوفية للأبجدية العبرية، ويتناول نشأة الكون وطبيعته، والظواهر الإلهية والصلاة التأملية، ويعد هذا الكتاب المثير للدهشة علامة في الأدب العبري الوسيط وقد ظهر في زمن المتصوف اليهودي "إسحاق الأعمى" (Isaac. Of Blind)(١١٦٠-١٢٣٥) لكن لا أحد يعرف

(ومعناه المنير) -وكانت بدايته في بروفنس بفرنسا- الذي يعتمد في منهجه على تأويل عبارات وآيات من الكتاب المقدس من خلال ضرب الأمثال ولاسيما المتعلقة بالملوك وحاشيتهم، وحيث يقارن الإله بملك متجسد من لحم ودم، ويطرح نص "الباهير" أسئلة دون إجابات أو أن تكون الإجابة أحيانا بطريقة غامضة، كما أن القراءة اللاهوتية مستحيلة في بعض الأحيان لدرجة الميل من قبل بعض الباحثين إلى تعديل النصوص؛ ذلك لأن نصوصه يغلب عليها الطابع الشرقي، فهدف الكتاب الغموض إذ أن هناك عالم يكمن وراء التلميحات واسرار الكلمة الكتابية[٤١]. وعلى ذلك جاءت قبالاة كتاب "الباهير" نتاج لاتحاد الغنوصية، والتقاليد الدينية، وامتد هذا النتاج ليشمل الافلاطونية المحدثة (Neo-Platonism).

ولقد ظهر خلال هذا القرن المؤلفون الأساسيون واتجاهاتهم التأويلية التي تتفق في الإطار العام للقابالاة وإن كان لدى البعض اختلافات منهجية مثل :إسحاق الأعمى، و"عزرائيل الجيروني" (Azriel Of Gerona) (١١٦٠-١٢٣٨م) و"موسى نحمانيدس" (M.Nahmanides) (١١٩٤- ١٢٧٠م) و"مناحيم ريكاناتي" (M.Recanati) (١٢٢٣-١٢٩٠م) و"إبراهام أبو العافية" (A.Abulafia) (١٢٤٠-١٢٩١م) و"موسى الليوني" و"يوسف جيكاتيلاه" (J.Gikatilla) وكل هؤلاء كانوا بارزين قبل ظهور الفيلسوف اليهودي "إسحاق بولجار" (Isaac Polgar) الذي ازدهر في النصف الثاني من القرن الرابع عشر، ورغم ذلك كانت القبالاه مجموعة من المعارف المتنوعة التي تدرسها النخب اليهودية، كما كانت الممارسات السحرية الأكثر شعبية بين الاشخاص الأقل تعليمًا[٤٢].

ويعد الفيلسوف اليهودي "إبراهام أبو العافية" من أهم فلاسفة هذا الطور حيث ادعي أنه نبي، وصوفي، والمسيح في أن واحد وقدم منهجا مفصلا لممارسة القبالاه وتجربة الاتحاد الإلهي حيث تتلاشي الحدود الفاصلة بين الذات والإله، وهذا النهج بديلا عن النهج الثيولوجي والفكري الذي تبناه معظم القباليين في العصر الوسيط الذين كانوا منشغلين برمزية الصفات الإلهية التي تشكل العوالم الإلهية، وأطلق ابو العافية على تعاليمه اسم القبالاه النبوية حيث كان هدفه إحداث حالة من الأشراق الداخلي[٤٣]. وعلى الجانب الآخر فقد عارض بعض فلاسفة اليهود في العصور الوسطي القبالاه لا سيما الذين كانوا مدينين بدرجة أو بأخري لفلسفة آرسطو فقد عارضها كل من موسى ابن ميمون(M. Maimonides) (١١٣٨-١٢٠٤) و"إسحاق بولجار" : فإذا نظرنا إلى الأول نجد أنه عارضها ورفض بعض التكهنات الباطنية لليهودية القديمة بوصفها هراء زائف، وأضفي صفة شرعية على الآراء الفلسفية الأرسطية التي كان منخرطًا فيها، ورأي أن أي يهودي لا يأخذ بهذه الآراء إما وثني أو أحمق ساذج . ورأى أيضًا أنه لا يمكن قبول القبالاه

من أين أتت هذه النصوص المنسوخة بطريقة رديئة سيئة التنظيم الجامعة لأكثر من مائة مقولة فلسفية في شكل شروح للكتاب المقدس. انظر:
(Gershom Scholem: on the Kabbalah and its Symbolism, op.cit, p. 90).

(41) Arthur Green: op.cit, pp. xxxiv- xxxv.

(42) Bill Rebiger: The Early oponents of the Kabbalah and the role of sceptic Argumentations: An outline, ed., by Giuseppe veltri and Bill Rebiger, De Guyter, Berlin and Boston, 2016, p. 53.

(43) Ibid, p. 54.

كمصدر للمعرفة لعدم اتفاقها مع المعايير الآرسطية للفلسفة والمنطق . وبين "ابن ميمون" أن الله ليس بحاجة إلينا لتنفيذ الوصايا، فالغرض الرئيس من الشعائر الدينية هو التعليم الذي يعد طريقة من الله لتهذيب العقل للتوجه نحوه(٤٤).

أما الثاني فقد ركز على الاختلافات المعرفية بين النهج القابالي والفلسفي للحصول على المعرفة الحقيقية والمؤكدة، ففي فلسفة "بولجار" يكتسب الإنسان الحقيقة بمساعدة التكهن العقلاني للقوي الفكرية التي من خلالها يستطيع الفيلسوف إدراك الأشياء الخفية عن طريق التفكير الأرسطي، واستخلاص استنتاجات من مقدمات معروفة، وعلى النقيض من ذلك ينكر القابالي هذه القدرة لدي الفيلسوف بشكل خاص والبشر بشكل عام عن طريق نهج متشكك تقريبا(٤٥) .

وعلى ذلك ليس مستغربًا أن تتشكل معارضة القبالاه إلى حد كبير من جانب الفلاسفة الذين ينتمون إلى التقليد الآرسطي العقلاني وعلى وجه الخصوص اتباع مدرسة "ابن رشد" (Averroes) (١١٢٦-١١٩٨م) من الفلاسفة اليهود أمثال الفرنسي "يعقوب أناتولي" (J. Anatoli) (١١٩٤-١٢٥٦م) وإسحق البلاغ (Isaac Alblag) في النصف الثاني من القرن الثالث عشر، واليهودي الفرنسي "موسى ناربوني" (M. Narboni) المتوفي بعد ١٣٦٢ م، والفيلسوف الإيطالي إيليا "ديلميديجو" (E. Delmedigo) (١٤٥٨-١٤٩٣م)، كل هؤلاء نجحوا في إثارة الجدل ضد أعمال القبالاه (٤٦).

ج-الطور الثالث: واذا ما انتقلنا إلى الطور الثالث وهو طور الازدهار الذي يمكن أن نطلق عليه القبالاه اللوريانية نجد أنه ظهر في القرن السادس عشر وامتد حتى القرن التاسع عشر وسمي بهذا الاسم نسبة إلى "إسحاق لوريا "(Isaac Luria)(١٥٣٤-١٥٧٢م) وشهرته الآري (The Ari) حيث رحل من مصر إلى صفد في إسرائيل وتتلمذ على يد القابالى "موسى كوردوفيرو"(M. Cordovero) (١٥٢٢-١٥٧٠) الذي يعد المؤلف الأكثر غزارة في التاريخ اليهودي بأكمله، وتركزت تأويلاته التوراتية على روح التوراة فرأي أن المهمة العليا للقبالاه تقوم على الدراسة والتأمل والممارسة(٤٧). ولقد زعم أتباع لوريا أنه تلقي الإذن الإلهي للكشف عن أسرار القبالاه، وهذا الأمر لا يمنحه الخالق إلا للمؤمنين البررة الأطهار، وأنه قد حدثت له رؤي ومقابلات متكررة مع النبي إيليا، ويدعون كذلك أنه بينما كان نائمًا صعدت روحه إلى السماء، وتحدث مع المعلمين العظماء في الماضي(٤٨). ويعد الحاخام "حاييم جوزيف فيتال" (H. J.Vital) (١٥٤٢-١٦٢٠م)، من أبرز تلاميذ "لوريا "حيث كان يقوم بتدوين المسائل والشروحات التي يتناولها استاذه،

(44) Arthur Green: in his introduction to the Zohar, Vol. 1, op.cit, p. xxxvi.
(45) Bill Rebiger: op.cit, p. 54.
(46) Ibid, p. 48.
(47) Louis Jacobs: A tree of life, Diversity Flexibility and Creativity in Jewish Law, 2nd ed., The Littman library of Jewish Civilization, Oxford, Portland, Oregon, 2007, pp. 69-71.
(48) Miriam Bokser Caravella: The Mystic heart of Judaism science of the Soul research centre, Themson press LtD. New Delhi, India, 2011, pp. 344-345.

ولعل من أهم أعمال لوريا : شجرة الحياة، وتناسخ الأرواح[٤٩] . وبحلول النصف الثاني من القرن السادس عشر أصبح "الزوهار" مقدسًا شأنه في ذلك شأن التوراة والتلمود. ([٥٠])

د-الطور الرابع: أما الطور الرابع الذي يمكن أن نطلق عليه القبالاه الميسانية أو "طور الخلاص" فيمتد من القرن السابع عشر حتى العصر الحاضر .

لقد كان من أهم مظاهر التقليد اليهودي في القرنين السابع والثامن عشر هو تحول بعض اليهود إلى قديسين، فقد كان التركيز منصباً على العيش في العالم، ونقل الوعي بالله إلى العالم بطريقة عملية وعلى مدار هذين القرنين تأثرت اليهودية بـ القبالاه، وهذا التأثير تسبب في تراجعها فقد حدث انشقاق يهودي جماعي بسبب تلك الحركة التي قادها المرتد "شبتاي زيفي" [٥١] (Shabbati Tzevi) (١٦٢٦-١٦٧٦م) الذي أتقن التعاليم الصوفية والتأملات القبالية، ولا سيما تعاليم إبراهام أبو العافية، وإسحاق لوريا وعاش تجربة تنوير داخلي، وكشف عن نفسه بوصفه المسيح وادعي الألوهية (المهدي المنتظر)، وأعلن أن زمن الفداء قد حان، لكن تم تكفيره من قبل السلطات الدينية، وظل يتنقل حتى انتهي به المطاف في إسرائيل[٥٢]

وعلى ذلك فقد ركز هذا الطور على الأفكار الميسانية المتعلقة بالمخلص اليهودي الذي هو من نسل "داود"، ولقد اعتمد "السبتيون" أو "الحركة السبتية" (Sabbatean Movement) على "الزوهار" بشأن عقائدها حول المخلص[٥٣]، فقد ضم السبتيون العديد من حاخامات القبالاه البارزين، ومنذ ذلك الحين فصاعدًا أصبحت القبالاه شاغلة بالعديد من المتناقضات فجمعت بين السحر والاتصال بالجن وعالم الأرواح[٥٤]).

وبداية من اسحاق لوريا مؤلف شجرة الحياة في القرن السادس عشر، كان علماء القبالاه يكتبون أن الوقت الذي يشير إليه "الزوهار" هو نهاية القرن العشرين، فقد أطلقوا عليه اسم "الجيل الأخير" ولم يقصدوا بذلك أننا سنهلك جميعا في حدث كارثي مذهل، ففي القبالاه يمثل الجيل حالة روحية، والجيل الأخير هو أعلى وآخر حالة يمكن الوصول إليها، وذهب علماء القبالاه أن الجيل الذي نعيش فيه – القرن الحادي والعشرين – هو الوقت الذي سنري فيه جيل الصعود الروحي، وهذا يتطلب الاختيار الحر الواعي إذا أردنا أن نتغير ليكتب لنا الخلاص[٥٥]

ونخلص مما تقدم إلى أن الشخص القابالى ليس شخصًا عاديًا لأنه يتمتع في اعتقادهم بحاسة سادسة إضافية تتمثل في احساسه بالجزء الخفي من العالم وعن عامة

---

(49) W. J. Colville: Kabbalah: The Harmony of oppsites, A treatise Elucidating Bible Allegories and Significance of Numbers, Macoy publishing and Masonicy Supply Co., N.Y, 1916, p. 43.
(50) Miriam Bokser Caravella: op.cit, p . 307.
(51) Colin Low: op.cit, p. 2.
(52) Miriam Bokser Caravella, op.cit, p. 376.
(53) Louis Jacobs: op.cit, p. 65.
(54) Colin Low: op.cit, p. 2.
(55) Michael Laitman: Kabbalah Revealed, pp. 121-122.

الناس، هذا الجزء يشيرون إليه تحت مسمي العالم الروحي[٥٦] وهذه الحاسة الفطرية يمكن تنميتها للوصول إلى درجة الحدس والمعرفة الباطنية وأخيرًا التواصل مع الذات الإلهية، فعندهم أنه ليس في مقدور الناس جميعًا الوصول إلى هذه الدرجة، وإن أهلتهم قدراتهم للوصول إليها لا يستطيع أحد أن ينحيهم عنها أو يطردهم من معية الرب حيث العالم النوراني .

وإذا ما أردنا، فصل المسحة العقائدية عن النزعة العقلية سوف يقودنا الحديث إلى الوقوف على الأثر الفلسفي في تلك التعاليم والمعتقدات والآراء.

د- الأبعاد الفلسفية للقبالاه

لم يكتب حاخامات القبالاه نسقًا فلسفيًا يعبر عن معتقداتهم أو رؤيتهم الحدسية الصوفية أو معارفهم التي استمدوها من الفلسفات شرقية كانت أو غربية؛ بل تركوا لنا شذرات مهلهلة اجتهدنا في تنظيمها للكشف عن المؤثرات التي حاكوها في بناء ذلك النسق الجامع بين الرؤية الثيوصوفية الروحية، والتعاليم الاجتماعية والأخلاقية وأخيرًا النظريات الفلسفية والعلمية فضلاً عن تغليف معظم تراثهم بالمسحة الأسطورية حيث القصص والحكايات التي تحمل دلالات عدة بعضها يبدو في صورة تعاليم ونصائح وأخري في صورة أسرار وطلاسم ورموز يستعان بها في شرح النصوص المقدسة أو الاتصال بعالم الجن والملائكة والشياطين.

فالسمة الأسطورية من السمات المتغلغلة في جذور القبالاه والتي تمثلت في الإجاداه (Aggadah) التلموديه وهي الروايات والقصص الأسطوري التلمودي ومختلف أعمال المدراش (Midrash) من قبل الحاخامات وتعاليم الحكمة بأشكالها المتعددة مثل الأقوال المأثورة والأمثلة والتقاليد الشفهية، كذلك فقد افترضوا أن للطقوس تأثيرًا سحريًا يتم التوصل إليها من خلال الوحي القابالى الذي ادعي رواد هذا الاتجاه وجوده[٥٧]، وكذلك النظرة الأسطورية للإله بوصفه الذي يستجيب للبشر من خلال الصلاة التأملية[٥٨] ولقد جاء في "الأجاداه" أن أسفار "موسى" الخمسة سبقت خلق السماوات والأرض، وأن الأرض شكلت نوعًا من المخطط المعماري كتبت بأحرف من نار سوداء على نار بيضاء[٥٩].

وعلى ذلك فقد اتسمت القبالاه بإحياء الأسطورة حيث تضمنت العديد من المعاني الأسطورية للصور والرموز التي أضفت عليها سمة دينية، ولا سيما فيما يتعلق بالإله وتجلياته أو فيوضاته، وقوة الإله الحي وطرق عمله ووصفها لوحدة الإله الديناميكية فهو يخرج من خفائه وكيانه الذي لا يوصف ليقف أمامنا بوصفه الخالق من خلال مجموعة من الصور والرموز التي يرتبط كلٌ منها بجانب معين من الجوانب الإلهية[٦٠] .

---

(56) Michael Laitman: Basic concepts in Kabbalah, Laitman Kabbalah publishers, Tornto 2006, pp 102-103.

(57) Gershom Scholem: Origins of Kabbalah ed., by R. J. Zwi Wer Bloesky, Trans. from German by Allan Arkush, The Jewish publication society, Princeton university, 1987, p.8.

(58) Arthur Green: op.cit, p. xxxi.

(59) Colin Low: op.cit, p. 71.

(60) Gershom Scholem: on Kabbalah and its symbolism, pp. 99- 100.

وسوف نعرض لهذه الأبعاد على هذا النحو:

الأثر الشرقي: ويبدو بوضوح في المؤثرات الهرمسية المصرية والتأملات البوذية الروحية والرياضات الهندوسية وذلك الصراع الأزلي بين الخير والشر الذي صورته معظم التعاليم الفارسية في الزرادشتية، والمانوية، والمزدكية بالإضافة إلى الطلاسم والتعاويذ التي نسجت لتغليف هذه المصادر[٦١].

أما الأثر اليوناني فيمكننا التماسه في الديانة الأورفية Orphism حيث الموسيقي والترانيم في العبادات، ثم عند أفلاطون في تفرقته بين عالم الظن الحسي وعالم اليقين الذي لا يتأتى الا بالحاذق الماهر الذي جاهد واجتهد لاجتياز عالم الظن والمادة والحس إلى عالم المجردات والروح والمعرفة الربانية، ونجد الأثر اليوناني كذلك في تبني بعض قادتها الفلسفة الآرسطية .

أما نظرية وحدة الوجود Pantheism فيمكن الوقوف عليها في كتاباتهم عن طبيعة الإله الذي يمكنه الحلول في العالم والتقمص أيضًا والظهور كذلك في بعض الشخصيات الملهمة، وذلك بمقدار تشبع الحاوي للنور الإلهي للحقيقة الوجودية السرمدية .

كما يمكن التماس أثار الأفلاطونية المحدثة في العرفان الروحي والتأمل والمجاهدة الصوفية الثيوصوفية التي تستمد من الفيض الإلهي كمالها أو قدرتها على العيش في العالم الجاحد لذلك النور الذي خص به الرب "أسباط داود"[٦٢] . ونلمسها كذلك في بعض المصطلحات فيما يتعلق بشجرة الحياة القبالية (وسوف نتناول ذلك في معالجتنا للعالم الميتافيزيقي عند القبالاه). إن القبالاه تتبع منطقًا مؤداه أنه إذا كان الله موجودًا فإن الهدف من الوجود الإنساني ما هو إلا معرفة الله لأن الإنسان هو الكائن الوحيد الذي يعرف أن هناك إلهًا، ويدرك إمكانية القداسة ويتوق إلى المتعالي لذا فإن الدافع لدخول القبالاه لا يبدأ بالإيمان، بل يبدأ بالمعرفة التي تشكل أساس الوجود الحقيقي الذي يكمن تحت هذا العالم وما فيه من ألم ومعاناة، ووهم، وبهذه المعرفة يمكن للمرء أن يبدأ في فهم شيء من القبالاه[٦٣].

أما ثوابتهم العقدية فقد ضمنوها إجابات توفيقية من الموروثات الثقافية للمجتمعات التي حاكوها (بلاد الرافدين- المصرية القديمة – السريانية – الآرامية) ويبدو ذلك جليًا في ردودهم على الأسئلة المطروحة في العقل الجمعي آنذاك لهذه الثقافات "من أين جاء العالم ؟ ومن الذي ابتدعه؟ ومن أنا؟ ولماذا أنا موجود ؟ ومن أين أتينا؟ وإلى أين نحن ذاهبون؟ وهل كنا في هذا العالم من قبل؟ لماذا يوجد معاناة في هذا العالم ؟ وما علة الموت؟ وما أسباب تفاوت البشر وقدراتهم وأشكالهم؟ وماذا عن نهاية العالم؟ وما يحدث في عالم الموتى؟ وكيفية الاتصال بالعوالم الأخرى؟ " وغير ذلك من الأسئلة التي دفعتهم إلى انتحال عشرات النظريات الفلسفية والتصورات الأسطورية والحكايات التي نسجتها الديانات الشعبية ولقد حاولت القبالاه تقديم إجابات عن هذه الأسئلة جيلا تلو الآخر، لكن جاءت الإجابات غير مرضية[٦٤].

---

(61) Richard Ploplis: op.cit, p. 40.
(62) Ibid, p. 21.
(63) Pinchas Giller: op.cit, p.
(64) Michael Laitman: Basic concepts in Kabbalah, op.cit, p. 13.

ويؤخذ على إجابات القبالاه انعدام النسقية في السرد وصعوبة فهم مضامينها، ويرجع ذلك إلى أن بعضها صيغ بأسلوب أقرب إلى الرمزية والطلاسم منه إلى الحكي والسرد المباشر.

وهذا ما أكد عليه المفكر الإنجليزي "دبليو. جيه كولفيل" W.J. Colville" (١٨٦٠-١٩١٧) حيث ذهب إلى أن تعاليم القبالاه تقوم على دمج مدارس فلسفية متعارضة فهي تقوم بتعليم الميتافيزيقا والواقعية – في الوقت ذاته – على قدم المساواة، ففي ضوء فلسفتها الواسعة لا يوجد تناقض بين المثالية والواقعية لأن الفكر القبالي فكر افلاطوني وآرسطي في الوقت نفسه حيث يمكن الانتقال من السبب الروحي إلى التأثير المادي مع أفلاطون، ومن النتيجة إلى السبب مرة اخري مع "آرسطو"، فهو يقدم الكون ذاته للميتافيزيقي المجرد بوصفه المفهوم الباطني الخاص به، بينما يقدمه للواقعي بوصفه شيئا ظاهريًا يجب دراسته من خلال النظر إليه من الظاهر بدلاً من الباطن، وبالتالي فقد درب القبالى ذاته على النظر في كلا الاتجاهين على قدم المساواة، ومن ثم يمكنه أن يري تشابهًا مثاليا بين عالم الحياة الذي يجده في الباطن أو الداخل، والعالم الذي يتم التعبير عنه في الخارج ومن ثم فإن مهمة القبالاه ايجاد نوع من التوازن بين الأضداد[٦٥].

ويترتب على ذلك أيضًا استمرار التقاليد القبالية فقد تم دمج الرمزية والتأويل، فحدث نوع من التفاعل بين التعاليم الباطنية التي شكلت جزءًا لا يتجزأ من نقل تعاليم القبالاه عبر العصور من خلال انخراط أسلافهم في عملية التأويل. فالقبالاة تستخدم لغة رمزية عالمية من خلال الاستعارات وهذه اللغة يتردد صداها عبر الثقافات والتقاليد مما يجعل الحكمة القبالية في متناول الباحثين من خلفيات متعددة وهو الأمر الذي سيسهم في إيجاد أرضية مشتركة في سعيهم نحو الفهم الروحي[٦٦].

وعلى مقربة من ذلك ذهب المفكر الألماني "هاينريش جرايتس" (H. Gratez) (١٨١٧-١٨٩١م)، إلى أنه لا يستبعد المؤثرات القديمة لكنه قدم تأويلاً تاريخيًا قائمًا على الأحداث والخلافات الكبرى في التاريخ اليهودي، ووفقًا لرؤيته لم تكن القبالاه في جوهرها سوي رد فعل ضد العقلانية المتطرفة التي تبناها "موسى بن ميمون" وأتباعه المتحمسون في جميع أنحاء الشرق وفي بروفنس (Provence) بفرنسا وقد ظهر ذلك جليا في عمله الرئيس "دلالة الحائرين"، وقد تزامن هذا الأمر مع ظهور القبالاه على الساحة التاريخية في بروفانس في القرن الثالث عشر الميلادي، فمع ولادة هذه الفلسفة أثار الظلاميون الذين كرهوا النور الذي أشرق من مدرسة العقلانيين الجدد ضدها نظاما اطلقوا عليه اسم القبالاه[٦٧].

ولقد جرت مناقشات بشأن التوافق بين تعاليم القبالاه والمناهج العقلانية أو الفلسفية في التعامل مع اليهودية حيث زعم البعض أن القبالاه تقدم رؤية عميقة فيما يتعلق بالأبعاد الصوفية للاهوت اليهودي، في حين يري آخرون أنها غير متوافقة مع التأويلات الأكثر عقلانية أو الفلسفية للتقاليد اليهودية، كذلك فقد شكك بعض النقاد في التبرير

(65) W. J. Colville: op.cit, pp. 108-109.
(66) Hermes Astrology: Kabbalah and the tree life: the astrologer's guide, maslering chart interpretation 2024, http://hermesastrology.substack.com/p/your-free-book,p.11.
(67) Gershom Scholem: origins of Kabbalah, op.cit, p. 7.

اللاهوتي لبعض أفكار القبالاه، في حين سعي آخرون إلى دمجها في أطر أخلاقية تعزز العدالة الاجتماعية والرحمة. [٦٨].

أما الأثر الصوفي: فيدعي أتباع القبالاه بأن هذه الفرقة تعد واحدة من أكبر مدارس التصوف اليهودي ذو التاريخ الطويل المعقد الممتد من ينابيع العصور القديمة عبر الأجيال مرورا بالعصر الوسيط والحديث حتى الأن. إنهم يدعون أنها سابقة على الدين بل أن معظم المعتقدات الدينية تستمد أفكارها منها [٦٩].

كما تزعم القبالاه أنها بدأت من حيث انتهت النبوة، ويبدو أن هذا النشاط النبوي تطور إلى النشاط الصوفي لحاخامات اليهود في فترة الهيكل الثاني، وقد اصبح هذا السلف للقبالاة يطلق عليه تصوف الميركافاه (Merkavah) أي المركبة الإلهية أو مركبة العرش الإلهي[٧٠].

وأخيرًا يمكننا ادراك مدى التشابه بين أطوار الخلق والوجود في تعليم القبالاه ونظرية التطور الدارونية، رغم ذلك لا يمكننا أن نقطع بتأثير السابق في اللاحق ولكننا نشير إلى هذا التشابه من منظور علم تاريخ الافكار.

٢-العالم الميتافيزيقي عند القبالاه **:**

لقد ألمحنا في الصفحات السابقة عن إجابات فرقة القبالاه عن الأسئلة المطروحة تجاه العالم الكوني (عالم الطبيعة وما بعد الطبيعة، والعالم الغيبي، والعوالم الموازية والكائنات الروحية) وغير ذلك مما لفظه العقل الجمعي تعبيرًا عن جهله بما يدور من حوله من موجودات تسيرها قوى غيبية مجهولة.

لقد تم تصميم المعتقدات الرئيسية للقبالاة لحل مشكلات الوجود الأسمى وطبيعته والكوزمولوجيا القابالية وخلق الملائكة والإنسان، ومصيرهما وطبيعة الروح والملائكة

---

(68) Hermes Astrology: op.cit, p 43-44.

(69) Aaron J. Hahn Tapper: Will the Real Jew please stand up ! karaites, Israelites, Kabbalists, Messianists and the politics of identity, An Essay in who is a Jew? Ed, by Leonard J. Green spoom, Purdue university press, 2014, p. 226.

(٧٠))مركبة العرش الإلهي هي رؤي خاصة بالصعود الصوفي إلى السماء عبر العوالم الخفية من أجل التلاقي مع المجد الإلهي، لقاء يتجاوز نطاق التاريخ، كذلك فهناك نزول إلى الميركافاه في رؤي تأخذهم تجاه العرش الإلهي عبر سلسلة من القصور الإلهية وهي عوالم زاخرة بالملائكة والترانيم والصلاة والاتحاد لله ٠٠. وهناك نوعان من الميركافاه : الأولي تشير إلى شكل من اشكال الممارسة الصوفية تتعلق بمعرفة الخالق، وقد تمت الاشارة إليها في التوراة. انظر:
(Arthur Green: op.cit, p. xxxii. وانظر - Colin Low, op.cit, p. 67).
أما الثانية فهي خاصة بالرؤى النبوية التي تحدث فيها عن الأنبياء مثل "حزقيال" والتي كانت في أفضل الأحوال موضوعًا لتقليد شفهي واعتبرت النموذج الأمثل لجميع التجارب والقصص الخاصة بالرؤيا التي استمد منها القبالاه تأملاتهم ،ثم تحدث عنها "أشعيا" في حديثة عن طبيعة القدوس، وتتناول الميركافاه علم الوجود اي معرفة الطبيعة الحقيقة للأشياء المخلوقة وتذهب إلى أن موسى من بين جميع الأنبياء كان وحده قادرا على التغلغل العميق في سر الالوهية. وانظر
(Pinchas Giller: op.cit, p. 11).
وانظر:
-Gershom Scholem: Origins of Kabbalah, op.cit, p. 451.

والشياطين والوحي والرمزية المتعالية للأرقام، والأسرار الغريبة التي تتضمنها الحروف العبرية والتوازن بين الأضداد[٧١]، ولكي نفهم الإله القابالي "أو الخالق" لا بد من توضيح مجموعة من المفاهيم المحورية المرتبطة به مثل شجرة الحياة القابالية، وبنيتها، وكيف فاض الإله القابالي "عين سوف"[٧٢] Ein Soph فتجلى منه ما يسمى بالسفيروت العشر Ten Sephiroth، ويطلق القبالاه على الخالق بالعبرية "عين سوف" ويترجم من العبرية إلى الإنجليزية متخذا أربعة أشكال (En Soph, Ein sof, Ayin Soph, Ain Soph) ومعناه الذي لا يمكن وصفه عن طريق الكلمات ولا يمكن ادراكه عن طريق العقل، والسؤال المطروح ما طبيعة العلاقة بين عين سوف والعوالم الأربعة التي تتحدث عن الكوزمولوجيا القابالية؟، وما العلاقة بين عين سوف وصفاته؟

للإجابة عن هذه الأسئلة يمكن القول بأن القبالاه تصور الخلق بوصفه نظامًا عضويًا يتمثل في شجرة الحياة القابالية، فالعالم في مجمله جزء من الإله (وحدة الوجود) - في تصورهم – وقد حدث هذا من خلال نظرية الفيض أو الانبثاق بداية من التاج السماوي حتى الملكوت- الذي يهدف إلى خلق العوالم المختلفة.

أ- شجرة الحياة القابالية والسفيروت[٧٣]:

---

(71) The Kabbalah unveiled, op.cit, paragraph 28, p. 16.

(٧٢) جذور المصطلح والعلاقة بين عين سوف والسفيروت:
لقد كتب في عام١٣٠٠م أن عين سوف لم يتم الاشارة إليه لا في التوراة ولا من قبل الأنبياء ولا في سير القديسين أو في كلمات الحكماء ولكن متصوفة اليهود القبالاه هم من تلقوا اشارات صغيرة عنه فهو ليس سوى الوحدة الديناميكية لانبثاق السفيروت العشر. وانظر: (Gershon Scholem: origins of kabbalah, op.cit, p. 443)
ولقد حاول المفكر الإنجليزي "دبليو جيه كولفيل" أن يقوم بعملية تأويل للمصطلح فأرجعه إلى الفصول الأولى من سفر التكوين لكن دون أن يشير إلى الإصحاحات المراد تأويلها، وارجعه أيضا إلى الاصحاح الأول من الإنجيل الرابع في العهد الجديد حيث العقيدة الأساسية للوجوسLogos.
انظر:

(W.J. Colville: op. cit, p. 46).

لكن الفيلسوف الإسرائيلي "جوزيف دأن"Joseph Dan (١٩٣٥-٢٠٢٢م) ذهب إلى أننا لا يمكن أن نلمح هذا المصطلح بوصفه رمزا يستند إلى نص كتابي لأنه لم يرد ذكره مباشرة في الكتاب المقدس.
انظر:

(Joseph Dan: op.cit, p. 154).

ويذهب الفيلسوف والمؤرخ الإسرائيلي "جيرشوم شوليم" إلى أن هذا المصطلح يشير إلى الإله الخالق أو النور غير القابل للإدراك فهو اللامحدود، كما هو الحال عند فلاسفة العصور القديمة والأفلاطونية المحدثة فهو الإله الذي لم يكن سفيروته(صفاته) سوى جانب من تجليه أو نشاطه –فعين سوف -عند القبالاه- سيد الخلق وأن العالم كله فيض إرادته غير المخلوقة وليس لها بداية في عملية الفيض بل وجدت ببساطة منذ الأزل فهو لا شكل له وهو مصدر الحياة والحياة نفسها متطابقة مع الحكمة والعالم كله نتاج فيضه أو انبثاقه. انظر:

(Gershon Scholem: origins of kabbalah, op.cit, pp 431-433).

(٧٣)) السفيروت هو مصطلح عبري ومفرده سفيره Sephirah وهذا المصطلح لا علاقة له بالكلمة اليونانية sefirah التي تعني تقريبا كرة أو منطقة، وهو الأمر الذي لا جدال فيه بين حكماء القبالاه في تأويلهم للسفيروت فهناك منهم من أرجع المصطلح إلى سفر يتسيراه الذي يشير ببساطة إلى الأعداد الأولية العشرة، حيث إن الجذر العبري Safar يعني العد أو الأرقام، وهذا المعنى يتماشى مع العقيدة القابالية التي تبدو مولعة ومهووسة بالتلاعب بالأرقام وخصائصها الطقسية، انظر:

تعد شجرة الحياة (الواردة في سفر التكوين ٣:٢٤) عند القبالاه تمثيل رمزي للنظام الإلهي والترابط بين جميع جوانب الوجود، وبالتالي فهي ركن من الأركان الأساسية في المعتقدات القابالية لأنها تتسم بتحقيق التوازن والتوفيق بين القوى المتعارضة، وهي مستمدة أساسا من الحضارات الشرقية القديمة (المصرية- السومرية- الكلدانية) مع بعض الاضافات، وهي موجودة في قصة الخلق، وتحديدا في سفر التكوين الذي تشير إليه القبالاه عادة تحت مسمى "سفر يتسيراه " ولكن بصيغة مختلفة .والهدف الأساسي من شجرة الحياة هو الرمز إلى علاقتنا باللامتناهي، وتوضيح عملية التجلي، ومسار الروح. ويركز مخطط شجرة الحياة عند القبالاه على السفيروت العشر (الصفات العشر للخالق) التي انبثقت من الإله، وكذلك العوالم الأربعة الواردة في النصوص القابالية الموجودة في كتبهم المقدسة في سفر "يتسيراه" و"الزوهار".

فالقبالاة لديها اصرار على رؤية الألوهية، والخلق من خلال ما تسميه بالسفيروت لأن السفيروت –عندهم- ليس منفصلا عن الإله بل هو وحي إلهي[٧٤]. فما أهم الأفكار الأساسية المتعلقة بهذا المفهوم؟ لكن قبل الدخول إلى خضم السفيروت العشر عند القبالاه نتساءل عن مصطلح السفيروت الذي يعد من السمات المميزة للفكر القابالي في مجمله؟ ثم نتساءل عن السفيروت العشر؟

يشير أحد مصادر القبالاه المهمة وهو كتاب "كشف أسرار القبالاه " إلى أن أفضل ترجمة للكلمة هي الفيض أو الانبثاق الفردي Numerical Emanation فالسفيروت هي الأشكال الأكثر تجريدًا للأرقام وفي هذا الاطار ذهب المفكر الأمريكي القابالي "مايكل ليتمان" إلى أن الفيلسوف اليوناني "فيثاغورث" أخذ تعاليمه من القباليين وكان أول من ترجم كلمة القبالاه التي لم يكن يعرفها معاصروه إلى الكلمة اليونانية فلسفة، فالقبالاه لا تجعلنا نحيا حياتنا في الغبار بل تسمو بعقولنا إلى أوج المعرفة.[٧٥]

بيد أن المفكر الأمريكي "هورويتز" Noah Horwitz (١٩٧٩-) ذهب إلى أن نظرية الأعداد بالفعل نظرية فيثاغورية لكن لا يمكن أن نحدد ما إذا كانت الفيثاغورية قد تأثرت بالقبالاه أم أن القبالاه تأثرت بها.[٧٦]

ويذهب أحد أشهر علماء القبالاه الحاخام "إسحق جنسبرج" Yitzchak Ginsburg (١٩٤٤-) أن كلمة سفيرة تعني القدرة الإلهية أو النشاط الإلهي . وهناك

(Gershom Scholem: origins of Kabbalah, op.cit, p. 26).

كذلك يطلق على مصطلح السفيروت عالم الفيض ولقد نسبت عقيدة السفيروت إلى "إسحق الأعمى" الذي قام بتأويل ما جاء في سفر التكوين (الاصحاح الثاني:١٠) "وكان نهر يجري في جنة عدن ليسقي الجنة وما يلبث أن ينقسم إلى أربعة أفرع" فيرى أن النهر هو رمز لظهور السفيروت عندما يغادر هذا النهر الجنة، ويتدفق إلى الخلق على مستوى الملكوت. فرمزية السفيروت هي رمزية ممتدة إلى الآباء، والأنبياء في التوراة إلى علماء القبالاه الذين نظروا إلى رواية التوراة بوصفها استعارة لعملية الفيض كما نظروا إلى أجزاء الجسم الإنساني على أنه متوافق مع السفيروت في العوالم الإلهية. انظر:

(The Kabbalah unveiled, op.cit, paragraph 52, p. 29. وانظر

-Mariam Bokser Caravella: op.cit, p. 285.

(74) Noah Horwitz: Reality in the name of God or, Divine insistence: An Essay on creation infinity and the ontological implications of Kabbalah, Punctum books, California, 2012, p.23.

(75) Michael Laitman: Kabbalah Revealed, op.cit, p. 23.

(76) Noah Horwitz: op.cit, p. 80.

آراء مختلفة للكلمة الاشتقاقية وجذرها الاصطلاحي، فهناك من يرجعها إلى النور، وهناك من يرجعها إلى الكلمة العبرية Sapirبمعنى الياقوت أو اللؤلؤة النفيسة، وهناك من يرجعها إلى سرد رواية أو نص(٧٧)

لكن السؤال المطروح من أين استمدت القبالاه فكرة الانبثاق أو الفيض الذي تمخض عنها فكرة السفيروت ؟

تذهب المفكرة اليهودية "مريام كارافيلا" Miriam Bokser Caravella إلى أن العديد من الفلاسفة المتصوفة اليهود الأول قد قرأوا كتابات الأفلاطونية المحدثة، وفلاسفة الإسلام الذين تأثروا بها والذين ناقشوا محاولة التوفيق بين الوحدانية الإلهية وتعدد الموجودات من خلال انبثاق الكثرة عن الواحد، والعودة إلى الواحد عن طريق الفيض، ومن ثم استطاع القباليون الأوائل تطوير رمزية جديدة وفريدة تستند على الانبثاق الديناميكي المستمر للسفيروت، وقد تمخض عن ذلك ورود مصطلح السفيروت في سفر "يتسيراه" القابالي ليشير إلى الشفرات أو الأرقام التي ترمز إلى القوى الثابتة.(٧٨)، ولعل من أهم فلاسفة اليهود الذين تأثروا بهذه النظرية وتبنوها "فيلون" philo of Alex (٢٥ق.م- ٢٠م) و"ابن ميمون" ومن فلاسفة الإسلام "الفارابي" Al-Farabi(٨٧٤-٩٥٠م) و"ابن سينا" Avicenna(٩٨٠-١٠٣٧م).

ويستشهد "جيرشوم شوليم" بتعليق أحد أهم علماء القبالاه في القرن الثالث عشر "عزريل الجيروني" Azriel of Gerona (١١٦٠-١٢٣٨م) على السفيروت العشر مستوعبًا التسلسل الهرمي الوجودي للأفلاطونية المحدثة داخل علم السفيروت فذهب إلى أن السفيروت الثلاثة الأولى (التاج- الحكمة- الفهم) تشكل عالم العقل، والثلاثة الوسطى (الرحمة- القوة- الجمال) تشكل عالم الروح، أما السفيروت الأربع الأخيرة (الثبات أو النصر، والمجد، والأساس والملكوت) فهي تشكل عالم الجسد(٧٩).

إن الغرض الأساسي من القبالاه هو التجربة الشخصية المباشرة للإله وتأويلاتها وقد أطلق علماء القبالاه على هذه الحالة بالعبرية "ديفيكوت" Devekut وتعني حرفيًا الالتصاق أي الاتحاد بالله، وأن الطريق إلى هذه التجربة لا يتأتى من خلال الفحص الدؤوب لرمزية السماوي بل من خلال التقنيات العملية للقبالاه.(٨٠)

ويلاحظ المفكر الاسكتلندي "كولن لو"Colin Low (١٩٥١-) هذه التحليلات والتأويلات المعرفية هي غنوصية وليست عقلانية أو فكرية للألوهية.(٨١)

ب- صفات الإله القابالي "عين سوف":

من خلال دراستنا لكتابات القبالاه نجد أن لفظ السفيروت ورد بمعان متعددة لعل أهمها: الصفات الإلهية، والدوائر التي تمثل حالات الوجود، وأدوات للخالق، والطاقات العشر لشجرة الحياة، وأيضا مداخل وأبواب الوحي الإلهي. لذلك فإن أول عالم من أسفل أو قاعدة الشجرة يسمى الملكوت. والسفيروت العشر هي تعبير عن الأسماء الإلهية المقدسة أو هي انبثاقات أو أوعية أو فيوضات فاضت عن الإله القابالي "عين سوف "

(77) Rabbi Yitzchak Ginsburg: What you need to know about Kabbalah, Dwelling place publishing, U.S.A, 2006, pp. 81-83.
(78) Mariam Bokser Caravella: op.cit, p. 283.
(79) Gershom Scholem: origins of kabbalah, op.cit, p. 452.
(80) Ibid, p. 451.
(81) Colin Low: op.cit, pp 9-10.

وهي بالترتيب التنازلي من الأعلى إلى أسفل (١) التاج وينطق بالعبرية كيترKeter (٢) الحكمة العاقلة وتنطق بالعبرية حوخماه Chokmah (٣) الفهم والذكاء وتنطق بالعبرية "بيناه"Binah (٤) الرحمة أو العطاء وتنطق بالعبرية حسيدChesed. (٥) القوة والصرامة وتنطق بالعبرية جيبوراه Gevurah(٦) الجمال أو التناغم وينطق بالعبرية تفيريتTiferet (٧) الثبات أو النصر وينطق بالعبرية نتساخNetzach (٨) المجد وينطق بالعبرية هودHod (٩) الأساس (الصلة بين العوالم) وينطق بالعبرية يسودYesod (١٠) الملكوت (العالم المادي) وينطق بالعبرية ملكوت أو مملكةMalkut[٨٢]، ولعل القبالاه متأثرة هنا بالتراث الهندوسي الذي ذهب إلى وجود عشرة تجليات رئيسية للإله "فيشنو" Vishnu الإله الأعلى والرب الحافظ للكون، وكل تجلٍ من هذه التجليات بوصفه شكلاً من أشكال "فيشنو" هو تجلٍ "البراهمان" Brahman، الواقع المطلق أو الحقيقة النهائية وهذه الصفات من شأنها الإعلاء من شأن الخير والتغلب على الشر.[٨٣]

وتتسم هذه الصفات جميعها بالتفاعل والترابط والتشابك مع بعضها البعض الآخر.

وإذا قمنا بتحليل هذه الصفات نجد أنها تنقسم إلى ثلاثة أعمدة:-

(أ) عمود الشدة على اليمين ويضم (الفهم أو الذكاء- القوة - المجد) .

(ب) عمود التوازن أو الوعي ويقع في المنتصف ويضم (التاج- الجمال- الأساس- الملكوت).

(جـ) عمود الرحمة ويوجد على اليسار ويضم (الحكمة- الرحمة- النصر) وهذا التقسيم معناه بأن كل سفيرة في عمود تشترك في صفة مشتركة موروثة بطريقة بنيوية أكثر تطورًا من أعلى العمود إلى أسفله، فسفيره (الجمال والأساس والملكوت) تشترك مع سفيرة التاج التي يطلق عليها بالعبرية "عالم آدم كادمون"Adam Kadmon أو آدم الأول أو القديم في صفة الوعي المتوازن أو التأليف بين الصفات المتعارضة. وعلى نحو مماثل تشترك الحكمة مع الرحمة والنصر في صفة القوة.[٨٤]

فالثالوث الأعلى المكون من التاج والحكمة والفهم هو تمثيل قابالي للإله الظاهر يشير إلى السفيروت السماوي[٨٥] ويشترك الفهم مع القوة ومع الروعة والمجد في صفة الشكل والتعريف والحدود وعندما يتحرك المرء إلى أسفل الشجرة أي يبدأ من التاج تجاه الملكوت يتم الجمع بين القوة والشكل معا، ويعد الملكوت السفيرة الأكثر مباشرةً وتعقيدًا وهي التعبير النهائي عن الشكل وهناك مقولة مثالية تقول أن التاج (السماوي) موجود في الملكوت (الأرض) والملكوت موجود في التاج[٨٦] ولعل القبالاه متأثرة في ذلك بما ذهب إليه الفيلسوف اليوناني "برقلس"Proclus (٤١٢-٤٨٥م) أن السماء موجودة في الأرض بطريقة أرضية، والأرض موجودة في السماء ولكن بطريقة سماوية[٨٧]

---

(82) Hermes Astrology: op.cit, p. 13.

(٨٣) جون كولر: الفكر الشرقي القديم، ترجمة كامل يوسف حسين، مراجعة د/ إمام عبدالفتاح إمام، سلسلة عالم المعرفة، عدد(١٩٩)، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ١٩٩٥م، ص١٤٥-١٤٧.

(84) Colin Low: op.cit, pp 10-13. وانظر

-Hermes Astrology : op.cit, pp 33-34.

(85) Colin Low: op.cit, p.63.

(86) Ibid, p. 29.

(87) The kabbalah unveiled, op.cit, paragraph 39, p. 21.

فالملكوت هو مجال العناصر المادية، ولا زال علماء القبالاه يستخدمون المخطط الرباعي الذي يعود تاريخه إلى عصر إمبادوقليس".[٨٨] Empedocles (٤٩٠-٤٣٠ ق.م)

ومن هذا المنطلق يرتبط السفيروت العشر (الصفات الإلهية العشرة) بنظام من التوازنات والتفاعلات الروحية المعقدة التي تعكس الخلق والتجليات الإلهية ويمكن تقسيمها إلى ثلاث ثالوثات جدلية

أما الثالوث الأول: (أ) التاج وهو اسم من أسماء الخالق وهو الوعي الإلهي بالذات والمبدأ الفاعل المُجدد للمعرفة.

(ب) الحكمة العاقلة الذي يفهم على أنه تأمل الإله لذاته وغالبا ما يطلق عليه ألواح الشريعة غير المخلوقة.

(جـ) الفهم هو الجانب التأملي للمعرفة وهذا الثالوث يتعلق ببداية الخلق ويظهر القوى الكامنة للخالق الذي ليس لها نظائر في الابداع الإنساني.[٨٩]

أما الثالوث الجدلي الثاني فهو قائم على جدل المفارقة بين الرحمة والقوة : أ-الرحمة والنعمة الإلهية أو المحبة والعطاء المطلق ويرمز لها بشخصية "إبراهيم". ب-القوة والصرامة وترمز لإيمان "إسحق". ج-الجمال والروعة والتناغم أو الانسجام والحقيقة Emet وهي تمثل الحرف الأول والأوسط والأخير من حروف الأبجدية العبرية، فهذه السفيرة توصف بأنها الشعاع المركزي في بناء الإله للكون، ووظيفة هذه السفيرة حل التوتر بين اليمين واليسار، وبين الحب والدينونة، و"يعقوب" بهذا المعنى هو الإنسان الأول أو "آدم" الجديد، وأن "موسى" هو الوحيد الذي ارتقى لهذا المستوى[٩٠]

أما الثالوث الجدلي الثالث فهو الثبات أو النصر ويمثل الارادة المستمرة (ب)" هود " ومعناه المجد ويمثل الاعتراف أو التأمل أو التواضع أمام الحقيقة (جـ) "يسود": ومعناه الأساس ويمثل الاتصال والارتباط بين العالم العلوي والمادي ويرمز إلى "يوسف الصديق" أو الصالح . وتؤكد القبالاه على الانسجام والتناغم بين الثالوث الثاني والثالث: فأحدهما يضع الأسس والقواعد التي تحكم الحياة، والآخر بمثابة الجانب العملي التطبيقي لهذه الأسس عن طريق الارادة وحب الحقيقة في عالمنا المادي.[٩١]

ثم تأتي بعد ذلك السفيرة العاشرة الملكوت التي هي مصدر كل حياة للعوالم الدنيا وتمثل الحضور الإلهي، وتمثل أقوى شبكة من الارتباطات الرمزية فهي تمثل المملكة التي يسيطر عليها الملك "تفيريت[٩٢]

ومن الملاحظ أن كل سفيرة تتلقى تأثير سماوي أو نور من تلك التي تسبقها وتنقل هذا النور أو ترسله إلى السفيرة اللاحقة وكل سفيرة لها وظيفة مزدوجة مرسل ومستقبل أي التلقي والتنقل عبر العوالم الأربعة التي يوجد بها السفيروت على شجرة الحياة.[٩٣]

إذا كانت الصفحات السابقة تحدثت عن صفات الإله الخالق وماهيته، فإننا نحاول هنا توضيح العلاقة بينه وبين العوالم الأربعة التي ذكرها حاخامات القبالاه في كتاباتهم، لذلك

---

(88) Colin Low: op.cit, p. 29.
(89) Richard Ploplis: op. cit, p. 76.
(90) Arthur Green: op.cit, p. xlv-xlivi.
(91) Ibid, p. xlvi.
(92) Ibid, P. xlviii.
(93) Kabbalah unveiled: op.cit, paragraph 25, p. 51. وانظر
-Michael Laitman: Kabbalah Revealed, op.cit, pp 107-108.

نتحدث عن هذه العوالم الأربعة المرتبطة بالإله، وبشجرة الحياة التي تتحدث عنها الكوزمولوجيا القابالية؟ أو بعبارة أخرى ما الخطوات التي يتم بها الخلق عند القبالاه ؟ أو بعبارة ثانية ما أهم مراحل التطور الروحي التي مرت بها القبالاه من الأعلى إلى الأدنى؟

(١) عالم الفيض أو الصدور أو الانبثاق وينطق بالعبرية "اتزيليوت"Atzilut وبالإنجليزية Emanation وهو مصطلح تطور تحت تأثير الفلسفة اليهودية ويمثل أسمى مستويات التجليات الإلهية أي النور المتدفق من الإله من خلال الوعي في هيئة أنوار السفيروت العشر كما أن الاشتقاق العبري لكلمة "اتزيليوت" Atzilut مستمد من الجذر العبري Ezel وتعني قريب مما يؤكد قرب هذا العالم من الإله القابالي الخفي الظاهر .

(ب) عالم الخلق الإلهي الأول وينطق بالعبرية "بريـاه" Briah وبالإنجليزيةCreation وهو عالم الخلق حيث تتم المراحل الأولى من الخلق وهو يشمل تكوين الكائنات الروحية، والنماذج الأولى وايجاد الأشياء من لا شيء، ويشير ناسخ كتاب "الباهير" إلى ملاحظة مفادها أن النور بما أنه صفة من صفات الإله فهو ليس مخلوقا على عكس الظلام فهو مخلوق لأنه ليس جزء من الإله.

(جـ) عالم التكوين أو التشكيل ويسمى بالعبرية يتسيراه وبالإنجليزية Formation حيث يتم تشكيل الصور والبنى الروحية وبناء الأشكال المعقدة ويضم الأساطير والخطابات والموسيقى والشعر والآداب والعلوم ويعتبر هذا العالم من الناحية التقليدية عالم أوامر الملائكة.

(د) عالم الفعل أو الصنع ويسمى بالعبرية آسياه Asiya وبالإنجليزية Actionويمثل عالم المادة وهو العالم الذي تتحول فيه الأشكال إلى حقيقة وهو العالم الأكثر بعدا عن المصدر الإلهي والصيغة الأساسية لهذا العام هي الاستقرار، وتحت العالم الأخير في الصنع الملكوت الأعلى (عالم آسياه) حيث يوجد حاجز وتحت الحاجز يوجد عالمنا أو الملكوت السفلي، وهدفنا في هذا العالم هو الوصول إلى عين سوف ، وتحقيق الاتحاد الكامل بالخلق.[٩٤]

إن العوالم الأربعة تمثل عوالم الوعي، ودعما لهذا الرأي تحتوي القبالاه على وجهة نظر عن الروح تتكامل مع العوالم الأربعة .[٩٥] وأن هذه العوالم بالإضافة إلى عوالم أخرى قد خلقت من أجل الإنسان لأن غاية الخالق تكمن في اسعاد مخلوقاته، ومن المثير للاهتمام مقارنة العوالم الأربعة القابالية بمخطط الأفلاطونية المحدثة الذين استقى منه صوفية القبالاه أصولهم حيث نجد تقسيمًا رباعيًا مشابهًا يتمثل في الواحد، والعقل الإلهي والروح الكلية، والعالم الحسي. ويمكن أيضا اجراء مقارنة مع التسلسلات السماوية لـ"ديونيسيوس" الغنوصي المجهول أو المنتحل Pseud Dionysius (الذي ازدهر في القرن الأول الميلادي) حيث نجد عالمًا ثانويًا فائقًا للنوسNous أو العقل والواقع، وعالما سماوياً ربما معاديا للصانع، والأركون Archons وعالم ما تحت فلك القمر.[٩٦]

---

(94) Michael Laitman: the path of kabbalah, op.cit, p. 108. وانظر
-Colin Low: op.cit, pp. 107-110. انظر
-Hermes Astrology, op.cit, p. 49.
(95) Colin Low: op.cit, p. 113.
(96) Ibid, p. 107.

جـ) الإله القابالي عين سوف وتوتر الخطاب القابالي:

إن المبدأ الأول والبديهي للقبالاه هو اسم الله الذي تم ترجمته في الكتاب المقدس "أهيه الذي أهيه" Iam Who Iam أكون ما أكون. ويذهب المفكر اليهودي الفرنسي "اليفاس ليفي زاهد" Eliphaz Levi zahed (١٨١٠-١٨٧٥م) أن القباليين يخشون كل ما يشبه عبادة الأصنام ومع ذلك فهم ينسبون إلى الله الشكل البشري على أنه كيان حسي تحل فيه روح الإله إذ يعتبرون الله واحدا لا نهائيًا عاقلاً حيًا محبًا فهو ليس وجودًا مجردًا هلاميًا وفي الوقت نفسه ليس وجودًا محددًا بزمان أو مكان أو حالة وضع. ومع ذلك فإن هذا الاسم يعبر فقط عن المثل الإنساني لألوهيته[٩٧].

ويفرق "الزوهار" بين لفظ "إلوهيم" Elohim و"يهوه " فيرى أن لفظ "إلوهيم" أقدم وهو مرتبط بالخلق ويعبر في كل مكان عن الدينونة. أما "يهوه" فعندما يكثر الصالحون من البشر يدعي الرب باسم "يهوه" وهو الاسم الذي يدل على الرحمة ولكن عندما يكثر الخطاة يدعي الرب باسم "إلوهيم".[٩٨]

ويضيف الزوهار إلى أنه على الرغم من انكار "فرعون" للرب إلا أنه كان يعرف اسم الرب "إلوهيم"، لكن "موسى" أتى إليه باسم الرب "يهوه" الذي يتجاوز إدراكه تمامًا[٩٩].

ويطلق القبالاه على الخالق عين سوف الحكمة المتعالية أو العالم الإلهي الذي يتجاوز كل وصف، واللامتناهي والعلة والسبب الرئيسي الحاكم لهذا العالم، كما أن الخالق ليس بمعزل عن العالم أو الإنسان لأنه جزء منه فهو إله خفي لكنه موجود داخل كل إنسان فهو الشعور بالعطاء والمحبة (ولعل هذا الوصف يتفق مع حديث القديس "أنسيلم" Anselm(١٠٣٣-١١٠٩م) عن الإله الذي لا يمكن أن نتصور أن هناك كائن أعظم منه فحسب بل أعظم مما نستطيع أن نتصوره[١٠٠])، كما يتسم بالحلول والتعالي في الوقت نفسه، فلكل معلول علة وكل شيء يدعو للنظام والتصميم يدل علي سيد فكل ما هو مرئي له حدود، اما عين سوف فهو اللامرئي واللامحدود واللامتناهي وهو السبب الأول للعالم ولا يمكن لأي شيء أن يوجد مستقلا عنه[١٠١]، ولعلنا نلمح شذرات "هيرقليطس" تطل بين بين السطور وكأن القبالاه تتحدث عن اللوجوس.

وعلى ذلك فـ"عين سوف" لا حدود له، وهو إله غامض، ومجهول كما أن الطبيعة النهائية للإله غير معروفة فهو يتجلى في الخلق في شكل أنوار إلهية أو فيوضات يشار إليها عادة باسم السفيروت وهذه الفيوضات تمثل القوة الابداعية للإله.[١٠٢]

ويذهب المفكر الأمريكي "هوروتيز" إلى أن "عين" تشير أولا وقبل كل شيء إلى الادراك ولهذا السبب سميت بهذا الاسم عند القبالاه في العبرية، وهنا نلاحظ أن رؤية العدم هي ذاتها عدم التمييز بحيث لا يمكن تمييز الإله بوصفه فريدًا عن أي شيء آخر،

---

(97) The kabbalah unveiled: op.cit, paragraph 32, p. 17.

(98) The Zohar: Vol, 2, Translated by Harry Sperling and Maurice Simon, the soncino press London and N.Y, 1931, 1934, (174 a), p. 165.

(99) Ibid, (195 a) , 241.

(١٠٠) أنسيلم: ترجمة د/ حسن حنفي، ضمن كتاب نماذج من الفلسفة المسيحية في العصر الوسيط (أوغسطين- أنسيلم- توما الإكويني)، مكتبة الانجلو المصرية، القاهرة، ١٩٧٨م، ص١٦٢.

(101) W. J Colville: op.cit, p. 105.

(102) Colin Low: op.cit, p. 126.

فالإله جوهر بسيط واحد دون تنوع أو ازدواجية أو تعقيد إنه يشير إلى الواحد الفريد الذي لا يوصف فهو أسمى الوجود، ويضيف هورويتز أن كلمة عين –في القبالاه - ترتبط بمرادفها العبري الذي يعني المصدر، والعدم هو مصدر العالم، فالعالم مخلوق من العدم، ومن ثم فإن عين هي نقطة الصفر.(١٠٣)

وعلى الرغم من أن الإله القابالي ليس له صفة تشابه أو تحاكي الصفات المرئية المحسوسة التي يمكن أن ينطق بها الفم أو يتصورها العقل إلا أنه يمكن الحصول على بعض المعرفة عنه من خلال ما ينبثق عنه، فهو الذي أنتج من أعماق كيانه الخفي سر النور الحقيقي الساطع وأنتج نورًا آخر ساطعًا يسمى الخلق، ومن ثم يشارك القابالي حرفيًا في إله إسرائيل وحقيقته المتعالية(١٠٤).

لقد قام حكماء القبالاه بتأويل الصفات الإلهية (السفيروت) التي من خلالها أوجد الخالق المخلوقات ولقد فهمت هذه الصفات من جانبهم على أنها أدوات وأقوال الله أي أنها كانت نفس الأقوال العشر التي يشير إليها الكتاب المقدس عندما يقول "أن الله تكلم فجاء الكون إلى الوجود ففي سفر التكوين تحدث الله عشر مرات (في الاصحاح الأول: ٣،٦،٩،١١،١٤،٢٠،٢٤،٢٦،٢٨،٢٩) أثناء خلقه للجوانب والمستويات المختلفة للخلق بداية من قوله "ليكن نورا" وفقا لتأويل حاخامي صوفي لسفر التكوين، إن هذا الأمر يدل على أنه أحدث الخلق أو النظام الكوني من خلال عشر أقوال أو صفات.(١٠٥)

كذلك فقد ذهب "جوزيف دان" إلى أن "عين سوف" هو الإله الأسمى ومصدر كل وجود وبداية العالم الإلهي والقوة الإلهية الأبدية التي لم ولن تتغير بالخلق أبدا، وهو مصدر التأثير الإلهي في العالم ولكن ليس له أي اتصال بالعالم إنه يذكرنا بالمحرك الأول عند "أرسطو" الذي يحرك ولا يتحرك بأي شكل من الأشكال، وقد يسعى الصوفي إلى رفع درجته الصوفية مع هذا الإله الذي لا يمكن أن يتأثر بأي شيء خارج ذاته ولا يمكن لأي مصطلح أسطوري أن ينطبق عليه في الواقع، إن هذا المصطلح كان غائبا عن أحد أهم مصادر القبالاه وهو كتاب "باهير"(١٠٦).

أما الفيلسوف اليهودي الأمريكي "آرثر جرين" Arthur Green (١٩٤١-) فقد ذهب إلى أن إله القبالاه ليس القائد القوي العاطفي المحب لشعبه كما هو مذكور في التوراة ولا القاضي الحكيم أو الأب المحب للوجود في الأجاداة الحاخامية ولا الملك المتوج كما هو الحال عند أصحاب الرؤى أو "الميركافاه"، فإله القبالاه يختلف اختلافا حادا عن المفاهيم المجردة المتزايدة للإله تلك المفاهيم التي ابتكرها الفلاسفة اليهود في العصور الوسطى بدءًا من القرن العاشر الميلادي على يد "سعديا الفيومي" وصولا إلى القرن الثاني عشر مع "موسى بن ميمون" الذي يمثل عمله موضوعا للجدل القابالي(١٠٧).

إن صورة الإله القابالي ظهرت لأول مرة في سفر "الباهير" وصاغتها أجيال عديدة من القباليين حتى بلغت أسمى تعبير شعري لها في "الزوهار" حيث إله ذو قدرات أسطورية متعددة وكيانات غامضة يصعب تعريفها بدقة لكنها موصوفة بشبكة رائعة من

(103) Noah Horwitz: op.cit,p. 86 , p. 127.
(104) George Margoliouth: The Doctrine of the Either in the kabbalah, the Jewish Quarterly review, Vol: 20, No.4, July 1908, p. 857.
(105) Miriam Bokser Caravella: op.cit, p. 283.
(106) Joseph Dan: opc.ti, pp. 154-155.
(107) Arthur Green: op.cit, p. xli

الصور، والأمثال، والاشارات الكتابية، وتشكل هذه الكيانات معا العلم الإلهي "فالإله هو المجموع الكلي لهذه القدرات، وعلاقتها الداخلية، ويمثل التفاعل الديناميكي بين هذه القوة جوهر أسطورة القبالاه ، والمعنى الباطني الحقيقي للألوهية من وجهة نظر أتباعها لكل من التوراة، والحياة الإنسانية ذاتها"[١٠٨].

أما حكماء القبالاه فعندما يتحدثون عن الطبيعة أو قوانينها فإنهم يتحدثون عن الخالق، والعكس صحيح فإنهم عندما يتحدثون عن الخالق فإنهم يتحدثون عن الطبيعة فالإله والطبيعة والخالق كلها مصطلحات مترادفة فلا يوجد سوى الخالق(الطبيعة) الذي ليس لديه حاجة لتلقي أي شيء لأن طبيعته العطاء ولا يمكن لنا أن نعطي لأننا مخلوقون من إرادة التلقي لأن الخالق (الطبيعة) قد خلقنا بإرادة التلقي فقط؛ لأن كل ما يريده العطاء لذلك لا نحتاج إلى تغيير أفعالنا، ولكن فقط الدافع وراءها.[١٠٩]

وتستخدم القبالاه العديد من المصطلحات لوصف إرادة العطاء مثل الخالق ،والنور والمانح وفكرة الخلق والمرحلة صفر، والتاج السماوي، والفهم، والحكمة والملكوت.[١١٠]

وتنص القبالاه بوضوح على أنه ليس من حق البشرية أن تعرف ماهية الإله في الأساس؛ لأن الأفكار المتعالية والكامنة عن الإله غالبًا ما تتناقض بشكل حاد في الجدل اللاهوتي لكنها تجد موضع التقاءها في تعبيرات مثل الله الكلي المتميز عن الكل وأعظم من الكل، فالاسم الإلهي لا يمكن التعبير عنه ومع ذلك فإن هذا الإسم يعبر فقط عن المثل الإنساني للألوهية[١١١].

لكن السؤال المطروح هل يمكن للقابالي أن يصل إلى عالم عين سوف؟

تذهب القبالاه إلى أن هناك ١٢٥ درجة أو مستوى يشكل طريقنا وتفصل بين عالمنا وعالم عين سوف لكن لا يمكن للمرء أن يصعدها قبل أن يصحح ما وقع فيه من أخطاء، وهناك تمييز بين جميع الأجيال، فالجيل الأخير الذي قام بهذه العملية من الممكن بلوغ جميع المستويات، أما الأجيال السابقة أو الماضية لم يكن بوسعها الوصول باستثناء عدد قليل، أما في الجيل الأخير سيتمكن الجميع من الصعود عبر المستويات الروحية والاندماج مع الخالق، ويشير مصطلح "الجيل الأخير" إلى جميع الأجيال البشرية منذ عام ١٩٩٥م فصاعدا لأنه وفق كتاب "الزوهار" كان ذلك هو الوقت الذي دخلت فيه البشرية مرحلة جديدة من التصحيح النهائي في القبالاه وتسمى هذه الفترة وقت الخلاص عندما يكون مقدرًا للبشرية أن تخرج من أدنى حاله. ولقد صعد "الراشبي "مؤلف "الزوهار" وتلاميذه المستويات الـ١٢٥ ولهذا السبب تمكنوا من نسخ "الزوهار".[١١٢]

ومما لاشك فيه أن هناك توترا في الخطاب القابالي في الحديث عن الإله بوصفه حاكمًا وخالقًا لكن يبدو أنهم قاموا بحل هذا التوتر؛ فالإله لا يظهر كخالق فقط كما قد يفترض منطقيا في أفعاله وتجليه (في السفيروت) بل يظهر في سياق الخطاب عن وجوده

---

(108) Loccit.
(109) Michael Laitman: kabbalah revealed, op.cit, p. 21, p. 38, p. 100.
(110) Ibid, p. 64.
(111) W. J. Colville: op.cit, p. 53.
(112) Michael Laitman: Basic concepts of kabbalah, op.cit, p. pp. 147-148. وانظر -Michael Laitman: The path of kabbalah, op.cit, p. 29.

المتعالي حيث يتلاقى الاثنان فيه ومن الصعب أن نقرر ما إذا كان هذا يتماشى مع لغة التوراة، فهذا الأمر يتجنبه الباحثون في بحثهم الدقيق.(١١٣)

أن "عين سوف" لا يؤدي أي دور فعال في الديانة فهو الهاوية واللاوجود الخفي في العدم المطلق الذي ليس لدينا عنه سوى إشارة غامضة، ومن ثم فإن هذا الأمر يقودنا إلى موقف القابالي المجهول.(١١٤)

ويعشق القابالیون لغة المفارقة Paradox كوسيلة لإظهار مدى عجز الكلمات عن وصف الحقيقة فالانتقال من التاج إلى الحكمة هو انتقال من العدم إلى الوجود، فالحكمة عند القبالاه هي عقل الإله الباطن، وعندما تنبثق الحكمة ينتج عن ذلك الرفيقة المتمثلة في الفهم والذكاء.(١١٥)

ومن المفارقات العجيبة أن القبالاه تحتوي أيضا على فكرة معرفة عين سوف اللامتناهي والمتعالي التي تمثل أوج المعرفة لسعادة الإنسان، لكنها معرفة مستحيلة تتجاوز كل حد. إن كلمة عين سوف تعني بلا نهاية وتستخدم للدلالة على الأرض غير الظاهرة التي تظهر فيها شجرة الحياة. إن هذا الاله له أربعة جوانب: منها جانبان ذكوريان يرمزان إلى التاج والحكمة وجانبان أنثويان يرمزان إلى الفهم والملكوت. فأحد ألقاب الحكمة هو "أبا" Abba، أما أحد ألقاب الفهم فهو "إيما"Ema وتعني الأم لذلك يمكن أن نفكر في الحكمة بوصفه الإله الآب والفهم بوصفها الإله الأم. أما الملكوت فهي الابنة أي الروح الأنثوية، ولن يكون من الخطر الجسيم أن نفكر فيها بوصفها الأم الأرض. كذلك توجد في القبالاه عقيدة الإله الابن. إن الوعي الذاتي يشبه المرآة التي يُرى فيها الوعي منعكسا.(١١٦)

وإذا عدنا إلى صفات "عين سوف" وارتباطه بالسفيروت العشر نجد أنها صفات خفية أخفاها داخل ذاته كي يحجب ذاته عن الأرواح(١١٧). إن هذه الصفات أو السمات بمثابة الرداء الذي يرتديه الخالق وليس هناك ما نستطيع أن نقوله عنها لأننا لا نستطيع أن ندرك معناها، وكل ما في الأمر أننا نستطيع أن نشعر بصفات الخالق كنور معين يوقظ فينا شعورًا فريدًا واستجابة معينة لنور الألوهية الذي ينبعث من الخالق.(١١٨)

فهناك ارتباط وثيق عند القبالاه بين الذات "عين صوف" والصفات "السفيروت العشر" ففي ارتباطهما نوع من الكمال أما في انفصالهما بعد عن الكمال، فكل الأشياء متأصلة في السفيروت. إن العالم المرئي مكون من ثلاثة أبعاد مميزة ومنفصلة أعلى ووسط وأسفل، وكل الأجسام لها ثلاثة أبعاد كل منها يكرر الآخر وضرب ٣ × ٣ يساوي ٩ وبإضافة الفضاء بوجه عام تصل إلى الرقم ١٠ وهو لا يتعارض مع الوحدة المطلقة كأصل وطالما أن "عين صوف" هو مصدر انبثاق السفيروت العشر وهو كامل وهكذا فكل الأشياء المخلوقة تتضاءل بالتجريد، لكن السفيروت لا يمكن أن يتضاءل فنشاطه لا

(113) Gershom Scholem: origins of kabbalah, op.cit, p. 442.
(114) Ibid, p. 443.
(115) Arthur Green: op.cit, p. xliii.
(116) Colin Low: op.cit, p. 7.
(117) Michael Laitman: the path of kabbalah, op.cit, p. 158.
(118) Ibid, p. 236.

ينقطع أبدا فقد جاء في القبالاه أن كل سفيرة كانت داخل "عين صوف" قبل أن يتم تجسيدها.[١١٩]

وعلاوة على صفة الانبثاق تضيف القبالاه عند "إسحق لوريا" صفة أخرى للإله عين سوف وهي صفة الانسحاب أو الانقباض Contraction والتي تعني بالعبرية Tzimtzum ومؤداها أن النور الإلهي الخاص بـ "عين سوف" كان يملأ العالم قبل خلقه للعالم، ولما اقتضت ارادته خلق العالم قام بالانقباض أو الانسحاب الجزئي المتمثل في حجب جزء من نوره اللامتناهي في الفضاء الروحي من أجل خلق فراغ لعملية خلق العالم، ثم يعقبها بعد ذلك بخطوة ثانية وفيها يقوم عين سوف بإدخال نوره ليملأ ويعم كل الفراغات والسفيروت[١٢٠].

وعلى هذا الأساس تساءل "إسحق لوريا" كيف يمكن لـ عين سوف الإله الخفي أن يخلق شيئا من لا شيء إذا لم يكن هناك أي شيء في البداية خاصة إذا كان عين سوف اللامتناهي موجودا في كل مكان؟ فكيف نكون متميزين أو مختلفين عنه؟ لقد زعم "لوريا" أن الخلق لم يكن ممكنًا، إلا لأن الانقباض الإلهي أدى إلى خلق فراغ من أجل أن يتم خلق الوجود بأسره.[١٢١]

وفي هذا الإطار حاول حكماء القبالاه أن يؤولوا كيف يمكن للخالق المتعالي أن يتجلى في الخليقة؟ كيف يمكن للواحد المجرد الذي لا شكل له أن ينزل إلى أسفل وينخرط في حياة البشر، ويستجيب لصلواتهم؟[١٢٢]

ويبدو أن حاخامات القبالاه قد حاولوا الجمع أو التوفيق وإن شئت فقل الخلط بين نظريتي الاتحاد والحلول فعندما يتجلى الرب في الكون ويتحد به ثم ينفرد ويستقل عنه أو يحل في روح بشرية فيسمى حلول اللاهوت في الناسوت في صورة الفناء. وبلغة "محيي الدين ابن عربي" (١١٦٥-١٢٤٠م) يعبر اتصال الرب بالعالم وحدة وجود، وعندما يستقل عن الموجودات بذاته تسمى هذه النقلة وحدة شهود الأمر الذي يقودنا إلى وجود أثر قوي بين النظريات الصوفية التي أشرنا إليها والفكر القابالي، ولا سيما في الفترة التي انتقل فيها حاخامات القبالاه من الهلال الخصيب إلى إسبانيا.

وعلى صعيد آخر فقد واجه حكماء القبالاه التحدي الفكري المتمثل في أنه إذا كان الخالق لا متناهي، ولا حدود له، ومكتفيا بذاته، فمن غير المتصور أن يكون له أي اتصال بالبشرية، وأن الخلق لا يمكن أن يأتي منه لأنه لن يكون هناك شيء خارجه، لا يمكن لشيء أن يأتي من العدم. لقد بذلت محاولات لتأويل هذه المشكلة في وقت سابق عبر التاريخ الصوفي اليهودي، فقد اقترح الفيلسوف اليهودي "سعديا الفيومي "أن المجد الإلهي أو اللوغوس كان وسيطًا أثيريًا "هواء أنقى" يحمل الروح الإلهية إلى الخلق، وذهب الفيلسوف اليهودي "سليمان بن جيبرول" في القرن الحادي عشر إلى أن الخلق قد حدث من خلال سلسلة من فيوضات النور الإلهي على الرغم من أن "ابن جيبرول" لم يستخدم مصطلح السفيروت.[١٢٣]

---

(119) W.J Colville: op.cit, pp 106-107.
(120) Colin Low: op.cit, p. 108.
(121) Ibid, p. 58, p. 123.
(122) Miriam Bokser Caravella: op.cit, p. 282.
(123) Locit.

وعلى ذلك يمكن القول بأن هناك سمتين متداخلتين للإله القابالي وأن شئت فقل إلهين:أ- الإله المتعالي واللامتناهي الخفي أو الأعظم وهذا الإله لا سبيل لنا إلى معرفته لأنه يتجاوز نطاق عقولنا ويسمى "عين صوف"

ب) الإله الظاهر وهو خالق العالم الذي انبثق عن الإله الأعظم .إن هذه التفرقة من جانب القبالاه قريبة جدا من تفرقة "كانط"Kant(١٧٢٤-١٨٠٤م) بين عالم الظواهر وعالم الشيء في ذاته الذي ينظر إليه "كانط" بوصفه موجودا لكن لا يمكن لنا معرفته، وكأن "كانط" قد أخذ هذا التمييز من القبالاه .

٣- التأويل والارهاصات الأولى للتفكيك Deconstruction عند القبالاه

لعل مصطلح التأويل في جل معاجمنا العربية يعني الإتيان بدلالة للفظ المكنون أو المسموع أو الرمز المرسوم في نص ما، ولما كان النص المقدس في الديانات السماوية كان له ضوابط في التأويل ولا سيما في المسيحية أو الاسلام حيث الاستناد إلى مرجعيات لغوية وتاريخية وثقافية وعلوم أخرى ذات الصلة فإن القبالاه قد رفضت ذلك كله وجعلت القارئ أو المتلقي للنص المقدس هو الذي يخرج المعاني والدلالات وفق الحدس أو الإلهام الذي تلقاه من قوى غيبية وهذا التأويل لا يستمر على مر العصور المتتالية والدهور المتعاقبة بل أن القوى الغيبية تصطفي من يستطع فك طلاسم النص المقدس ليضع له الدلالات المناسبة للعصر الذي يعيشونه من جهة والمزاج النفسي والقدرة الروحية على التلقي من جهة أخرى وبناء على ذلك يتجدد التأويل ومن ثم يجد اليهودي نفسه أمام نص مقدس جديد كل فترة زمنية يعيشها بأوجاعها وآمالها.

فالقبالاة تزعم بأن الخالق هو من يقوم بتجديد معتقداتهم كل جيل إذ يرسل باستمرار عدد من الحكماء الذين يقومون بتجديد وتعديل وتصحيح أمور العالم من الأخطاء الروحية التي وقع فيها كل جيل وذلك بما يتوافق مع فهم الأجيال وهذا هو السبب في حلول الروح القدس بداخل القابالي العظيم "إسحق لوريا" في عالمنا، وقيامه بكتابة التأويل المعاصر للزوهار، فقد قيل عنه من قبل أحد الحاخامات أن ظهور كتبه تعادل اعطاء التوراة لأمة إسرائيل.(١٢٤)

فتأويل النص المقدس التوراتي هو حكر على حاخامات القبالاه الذين يؤولون النص وفق ما يتراءى لهم دون أي قواعد تحكم عملية التأويل، وهو ما يفضي بطبيعة الحال إلى التفكيك.

أ- تأويل النص المقدس بين العهد القديم ورمزية الزوهار:

بداية فإن التأويل عند القبالاه ، كما جاء في "الزوهار" يقوم على قراءة متعددة لفهم النصوص المقدسة انطلاقًا من القراءة السطحية حتى الوصول إلى المعنى الواضح ومنها إلى اكتشافات أكثر عمقا من خلال ولع باللغة والتلاعب بالكلمات واعادة تشكيل النص الكتابي بالكامل. إن ولع القبالاه يتمثل في تأويل الكلمات الغامضة بما في ذلك مظاهرها السمعية والبيانية (أي المنطوقة والمكتوبة) ولقد قدم الحاخام "بهيا بن آشر Bahya Ben Asher(١٢٥٥-١٣٤٠م) تأويلات قبالية رباعية للنص المقدس في تسعينيات القرن الثالث عشر، من خلال قراءة رمزية مجازية غلب عليها الطابع الأسطوري، من أجل

(124) Michael Laitman: the path of kabblah, op.cit, p. 309.

الكشف عن المعاني الخفية والمجازية، واستخدام تأويلات عقلية وفلسفية معتمدًا على الخيال وإضافة تفاصيل غير موجودة في النص[١٢٥]، ولقد اكتست تأويلات القبالاه بالسمة التفكيكية لنصوص العهد القديم، فقد حاولوا إحلال مفاهيم جديدة تتماشى مع روح العصر بدلاً من المفاهيم اللاهوتية القديمة، فقد أراد المؤولون العودة بنصوص العهد القديم إلى الجذور حيث النصوص الأصلية التي تمثل النقاء ومن ثم قاموا بتفكيك النصوص المقدسة.

إن النص المقدس في رأي جاك دريدا يضع الحد والنموذج الخالص للترجمة الخالصة رغم استحالة بلوغه، والمثال الذي يمكن من خلاله التفكير في الترجمة الأساسية، أي الشاعرية وتقويمها وتقديرها، فما يحدث داخل النص المقدس هو حدث غياب المعنى، وبالتالي الميل إلى استرجاع القداسة المفقودة، والترجمة وفق نموذجها[١٢٦].

ولعل من الأمور التأويلية المربكة عند القبالاه هي المصطلحات الجديدة المنتشرة في جميع أنحاء "الزوهار" التي تهدف إلى إرباك القارئ، بعضها مشتق من مصطلحات تلمودية نادرة أعاد المؤلف صياغتها عن طريق الخطأ العمد في كتابتها تارة، أو عن طريق قلب الحروف تارة ثانية، علاوة على أن بعضها مشتق من اليونانية أو اللاتينية أو القشتالية، وأن بعضها الآخر محل اختراع[١٢٧].

لقد قامت القبالاه بتأويل اسم "يهوه" ونظرت إليه بوصفه اسمًا مقدسًا وذو أحرف أربعة مقدسة YHVH لكنه قد يتخذ أحرف هجائية مختلفة، تعرف من خلال قيمتها العددية التي تتخذ أرقام ٥٢،٤٥،٦٣،٧٢ لتتناسب مع التجليات الالهية ومع الصفات العشرة لشجرة الحياة عند القبالاه ومن خلال تأمل هذه الأعداد يتم استخلاص القيم التي تتضمن معان ورموز خفية تنطوي عليها الحروف بهدف الوصول إلى فهم الأبعاد الكونية الروحية لإسم "يهوه".[١٢٨] ولعلهم متأثرين في ذلك بالتأويلات الباطنية التي ذاعت وشاعت في لغة الجفر(ربط دلالات الحروف بمعرفة الحوادث في العالم)، وكذلك اللغة الكرشونية (الكتابة العربية بحروف سريانية).

وتنظر القبالاه إلى التوراة بوصفها قاموسًا إلهيًا من الرموز، وليس معنى هذا أنه يتعين على الصوفي أن يبحث في اللغة الإنسانية كلها للعثور على الرمز المناسب من أجل التعبير بأقصى ما يمكن عن الحقائق الإلهية الخفية، فالله نفسه فعل ذلك عندما كشف عن أسراره في اللغة الإنسانية بينه وبين "موسى" على جبل سيناء، وفعل ذلك مع الأنبياء والكتبة الذين كتبوا تحت تأثير الروح القدس. إن الخلق الذي صنعه الخالق يعكس حقائق إلهية داخلية بطريقة رمزية، فالصباح والمساء، والنور والظلام ليست سوى رموز أرضية لحقيقة صوفية، ومن ثم فإن الصوفي القابالي ينكر صدق كل ما يتم تعلمه عن طريق الحواس أو العقل وكل ما هو ظاهري وهو يعتقد أن كل الظواهر المرئية انعكاسات رمزية لحقيقة إلهية مجهولة وغير قابلة للمعرفة.[١٢٩]

إن الطبيعة التأويلية المتفردة لأسلوب التأويل القابالي الذي يتوسع ويشرح من خلال دوائر مجازية ورمزية تفضي إلى نوع من توافق الرموز الواسعة التي لا تنكشف إلا من

---

[125] Arthur Green: op.cit, p. lviii.

[١٢٦] جاك دريدا: إستراتيجية تفكيك الميتافيزيقا، ترجمة وتقديم: عز الدين الخطابي، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، المغرب، ٢٠١٣م، ص ص ٢٨٥- ٢٨٧.

[127] Daniel C. Matt: op.cit, p. xv.

[128] Miriam Bokser caravella: op.cit, p. 361.

[129] Joseph Dan: op.cit, pp. 161-163.

خلال التأمل لدلالات المعاني. فالتأويل القابالي يقوم بعملية إعادة صياغة النص المقدس Meta- mythizes على النهج الأسطوري للنص الذي يقوم بتوسيع معانيه ويخلق بدوره كتابًا مقدسًا خاصًا به.(١٣٠) يعتمد على تفكيك هذه النصوص.

كذلك تتحدث القبالاه عن تأويل الألواح المكتوب عليها الوصايا العشر فيذهب "الزوهار" إلى أن هذه الألواح قد أعطيت لـ"موسى" يوم السبت، وأنها خلقت قبل تكوين العالم وقد جاء في إحدى الروايات بأنها شفافة بينما تتحدث رواية أخرى عنها بأنها تحتوي على كتابات تشبه النار السوداء على النار البيضاء. ولا تعترف القبالاه بأن "موسى" قام بكسر الألواح بل ترى أنها كُسرت واختفت من عليها الحروف بسبب عدم جدارة الشعب. وتذهب القبالاه أيضا إلى أن الألواح المحطمة كان مكتوبًا عليها التعاليم الشفهية جنبا إلى جنب مع الشريعة المكتوبة، لكن غالبية الشعب لم يكن جديرًا بامتلاك مثل هذا الميراث الثمين لذلك عاد التشريع الداخلي إلى السماء، لكن الشريعة المكتوبة أعطيت مرة أخرى على ألواح جديدة ظلت سليمة ولم تختف الحروف منها، وتم الحفاظ عليها إلى الأبد كتعاليم سرية في إسرائيل رغم أنها محجوبة تماما عن غير الجديرين بها(١٣١)، أى أنها حكرًا على حاخامات القبالاه .

والسؤال المطروح كيف تتعامل القبالاه بطريقة تأويلية مع بعض الشخصيات الواردة في العهد القديم من خلال "الزوهار" وكتبها المقدسة؟

تتعامل القبالاه مع شخصيات الكتاب المقدس بطريقة تتجاوز التاريخ تماما فتنظر إلى "إبراهيم" على أنه يمثل الروح الأعمق، وتمثل "سارة" الروح الثانوية ويمثل "إسحق" المبدأ الفكري، وتمثل "رفقه" المبدأ الحيوي؛ وعليه فعندما يقرأ الكتاب المقدس بهذه الكيفية يكون بعيدًا تمامًا عن متناول النقد التاريخي لأن سردياته تتحلل إلى قصائد وأمثال وتكتسب أهمية أوسع بكثير من أي تأويل حرفي.(١٣٢)

كذلك تؤول القبالاه تغيير اسم "إبرام" إلى "إبراهام"، واسم "يعقوب" إلى "إسرائيل"، وحوادث مماثلة مسجلة في الكتاب المقدس العبري بأن لها دلالات وإشارات واضحة تتمثل في أن بعض الأنظمة تعمل وفق القيم المعرفية أي القوة العددية للحروف، والبعض الآخر يعود إلى القيم الصوتية.(١٣٣) ذلك لأن دلالات القبالاه هي تجسيد لأي معلومات سرية قد تتخذ أشكالا متنوعة سواء كانت حرفية أو عددية أو هيروغليفية، فقد تناولت رمزية الأعداد وعلاقتها بالنظام الكوني في عمليات صعبة ومعقدة لكنها لم تقدم سببًا لربط قيمة عددية معينة بالكواكب كما استخدمت الأشكال الهندسية في الفكر الرمزي لتمثيل حالات الوعي بالأرقام ٤،٣،١ لتدل على الله والإنسان والطبيعة – "أوزيريس"، و"حورس" "وإيزيس" واستجابة للنموذج العالمي للكائن الواحد المركب من الروح والنفس والجسد، وبالتالي اعتمدت على قوة الأرقام التي يقوم عليها الكون في تصورهم والتي وجدت عند "فيثاغورث" وأثبتها "كبلر" Kepler(١٥٧١-١٦٣٠م)" و"نيوتن" I. Newton (١٦٤٣-١٧٢٧م).(١٣٤)

---

(130) W. Richard Ploplis: op.cit, p. 56.
(131) W. J. Colville: op.cit, pp. 48-49.
(132) Ibid, p. 174.
(133) Sepharial: The kabbalah of numbers, the university of Illinois, Urbana Champaign Brittle Books project, U.S.A, 2012, p25.
(134) Ibid, pp. 14-19.

ولقد جاء في كتاب "كشف أسرار القبالاه " أن لكل حرف قيمته العددية الخاصة، وبعض الحروف لها قيمتان عدديتان اعتمادًا على ظهور الحرف في منتصف الكلمة أو نهايتها، وبالتالي فإن كل حرف رقم، وكل رقم كلمة، وقد تمت الاشارة إلى ذلك في سفر "الرؤيا لـ"يوحنا اللاهوتي" حيث ذكر "يوحنا" أن الوحش يرمز إلى العدد٦٦٦ ومن ثم فإن التطابق بين الكلمات والأرقام يستند إلى علم الحساب القابالي.[١٣٥]

إن أحد أكثر أشكال القبالاه إثارة للاهتمام يتمثل في ربط الأسماء أو الأحداث بالقيمة العددية للحروف فلكل حرف من حروف الأبجدية العبرية في اعتقادهم قيمة معطاة، والقيمة تتبع الرمز العبري ثم يتم ضرب هذه القيمة بالترتيب العكسي للحروف –من خلال عملية معقدة- وبعد ذلك يتم جمع النواتج في النهاية معًا لتشكل الرقم الرئيسي عند القبالاه . إن تعامل القبالاه مع نظريتها في تأويل الارقام وقيمتها يعتمد على دراسة العناصر الكونية، وكواكب النظام الشمسي، ودوران القمر، والكسوف، وعلامات الأبراج.[١٣٦]

وتركز القبالاه بشدة على مجموعة من الأرقام المقدسة في ربطها بالألوهية والخلق والفلك والتنجيم مما يعطي لهذه الأرقام دلالتها التي تشغل مكانة مهمة عند القبالاه، ولعل أهمها الرقم (١٠) بوصفه الرقم الذي يعبر عن كل شيء عندهم فهناك عشر أسماء إلهية لها عشر سفيروت (صفات) وعشر رؤساء للملائكة، وعشر رتب من الملائكة، وعشر رتب من الشياطين، وعشر طرق مميزة للعمل الإلهي، وهناك الوصايا العشر في التوراة التي تلخص الشريعة الموسوية، كذلك لدى القبالاه تكريم للرقم (١٠) نابع من أصابع كل يد خمسة، وأصابع كل قدم خمسة، وبالتالي فإن كل جسم بشري طبيعي له يدان، وقدمان . ويُلقى هذا الاعتبار الكثير من الضوء على استخدام صيغة الجمع في الترجمات المختلفة للأسفار الخمسة العبرية، فالإسم الإلهي "إلوهيم" في تكوينه يعد جمعًا "لنصنع الإنسان على صورتنا ومثالنا" وهو اقتباس مألوف مأخوذ من الإصحاح الأول من سفر التكوين، وتكشف القبالاه أن هذا التعدد الظاهري للسمات الإلهية لا يتناقض بأي حال من الأحوال مع الإيمان التوحيدي الصارم لإسرائيل.[١٣٧]

ويتوقف كتاب كشف أسرار القبالاه عند لفظ "إلوهيم" فيرى أن مترجمي الكتاب المقدس قاموا بإخفاء كل إشارة إلى حقيقة أن الإله ذكر وأنثى فترجموا "إلوهيم" بصيغة المفرد والجمع، والمذكر والمؤنث، فيمكن خلق آدم على صورة "إلوهيم" ذكرًا وأنثى ما لم يكن "إلوهيم" ذكرًا وأنثى أيضا.[١٣٨]

كذلك من الأرقام المقدسة عند القبالاه الرقم(٧) والحرف السابع فقد جاء في سفر "يتسيراه" الجزء الخامس عشر "من خلال الحروف السبعة الساكنة المزدوجة تشكلت سبعة عوالم، وسبع سماوات، وأراضين سبع، وبحار سبعة (ربما حول فلسطين) وسبعة أنهار، وسبع صحاري وسبعة أيام في الأسبوع، وسبعة أسابيع من عيد الفصح إلى عيد العنصرة، وهناك دورة مدتها سبع سنوات، والسنة السابعة هي سنة العتق أو التحرر أو الابتهاج، لذلك فقد أحب الإله الرقم سبعة تحت السماء كلها أي في الطبيعة كلها.[١٣٩]

---

(135) The kabbalah unveiled, op.cit, paragraph 4, p. 4.
(136) Sepharial: op.cit, p. 152.
(137) W. J Colville: op.cit, pp. 82-88.
(138) The kabbalah unveiled, op.cit, paragraph 40, p. 21.
(139) Sepher Yezirah: A book on creation or the Jewish metaphysics or remote antiquity, Trans by Rev. Dr. Isidor Kalisch, L H. Frank and Co. publishers,

كذلك لا يمكن إغفال الرقم(٦) عند القبالاه فمسار البشرية بالكامل يتألف من ستة أيام هذه الأيام الستة تمثل ستة آلاف عام من التعديل أو التصحيح الواعي للعالم الذي بدأ حسب التقويم اليهودي عام ٥٧٥٥ (أي عام ١٩٩٥م) منذ سنوات ليست بالبعيدة، وفي السنوات المتبقية قبل نهاية الست آلاف عام يجب على اليهود وكل البشرية اكمال التصحيح، وفي الألفية السابعة سينالون المكافأة.(١٤٠)

وعلاوة على ذلك تمدح القبالاه رقم (١١) بشكل كبير، وأن كل من يسلكه على نحو صحيح وفهم حقيقي سيصل إلى رؤية الإله، أما الرقم (١٢) فهو يرتبط بأسباط إسرائيل، ويرتبط في سفر الرؤيا بالرسل الإثني عشر. أما الرقم (١٣) الذي ينظر إليه العديد من المتعصبين بتشاؤم أو كراهية وخوف فإن القبالاه تنظر إليه على أن له دلالة على فهم الحقيقة، وأن من لديه دلالة على فهم صحيح لهذا الرقم يمتلك مفتاح المعرفة الروحية، كما أن هذا الرقم يشغل مكانة رفيعة فمنه تتكون هيئة المحلفين بالإضافة إلى القاضي، كما أن المعلم القابالي يجلس مع (١٢ تلميذ). أما الرقم (١٤) فيرتبط بالحركة المستمرة والنسيان أيضا. أما الرقم (١٥) فيرتبط بالسحر والغموض، ويرتبط في سفر "يتسيراه" بمسار الظلام (التعتيم المؤقت) أما الرقم (١٦) فيرتبط بمسار المجد والانتصار للأبرار، ويشير الرقم (١٧)إلى نجمة المجوس، أما الرقم (١٨) فقد ارتبط رمزيًا بالشفق والندى الساقط. ويشير الرقم (٢٠) إلى رمز قيام أو استيقاظ الموتى والدنيوية، أما الرقم (٢١) فيشير إلى طريق الحكمة البدائية، ويشير الرقم (٢٢) إلى الأبجدية العبرية وإلى عدد المسارات التي يتدفق منها النور الروحي إلى الأرض.(١٤١)

فالقبالاه تستخدم الأرقام للكشف عن قيمتها، ودلالتها الرمزية، وهذا الأمر كان معروفًا لدى قدماء المصريين واليونان فقد أشار "برقلس" إلى أن الرقم له دائما وجود في الصوت، وآخر في نسبة الأشياء، وآخر في الروح والعقل وآخر في الأشياء الإلهية . كذلك فقد أعلن "أفلاطون" وغيره من مشاهير الفلاسفة أنه لا يمكن لأي إنسان أن يكون فيلسوفًا حقيقيًا دون معرفة صحيحة بأهمية الأرقام . ويقال دائما أن الأرقام البسيطة تشير إلى أشياء إلهية، فالأرقام التي تصل إلى العشرات تشير إلى الأشياء السماوية، والأرقام التي تصل إلى المئات تشير إلى أشياء أرضية في حين أن التنبؤات بالأشياء القادمة يتم التعبير عنها بالآلاف، ورغم أن هذا البيان قد يبدو غريبًا في البداية إلا أنه قد يكون له توافق أو تناغم مع فكرة الرقم أو العدد مما يوحي بالوحدة المطلقة، ويدل على فكرتنا عن الحقيقة الإلهية.(١٤٢)

وعلاوة على ذلك تستخدم القبالاه في التأويل أسلوب التلميح والمعنى المجازي والرمزي، وتستمر في تأويلاتها للكشف عن الطبقات العديدة من المعنى الخفي في كل عبارة، وحرف وعلامة، وكل نقطة في التوراه، ويستخدم هذا المستوى المتفرد من التأويل القابالي علم الحروف والأرقام بالإضافة إلى علم "الجيماتريا" Gemateria وهو نظام يستخدم في تحويل الحروف إلى أرقام ويتمثل في القيم العددية للحروف من أجل

Supreme Grand Lodge of the Ancient Mystical order Rossae Cruces, California 2015, Chapter 4, section 15,

(140) Michael Laitman: the path of kabbalah, op.cit, p. 322.

(141) W.J Colville: op.cit, pp. 90-94.

(142) Ibid, p. 89.

استخلاص معاني خفية باطنية ودلالات رمزية كما تستخدم علم "النوتاريكون" Notaricon لأغراض صوفية تأويلية وهو علم الحروف الأولى والوسيطة والأخيرة بالإضافة إلى علم "التيمور" Temurah أي تبديل الحروف، وتركيبها بهدف استخلاص تأويلات باطنية للنصوص المقدسة، وتكثر الأمثلة على ذلك في "الزوهار" ولأن هذه الأجهزة ميكانيكية في الأساس فقد تحولت سريعًا إلى أساليب سحرية(١٤٣).

إن نظام القبالاه العددية مرتبط بموضوعات أخرى تتعلق بعلم التنجيم، فالأرقام لها دلالات رمزية وأخلاقية، يتعين علينا أن نبحث عن مفتاح لهذه العلاقة بصرف النظر عن إدراك رمزيتها؛ لأن الكون رمز موجود منذ عصور طويلة، لقد أظهر القدماء معرفتهم برمزية الطبيعة عندما وضعوا بَعد الإله الثالوث ما يسمى بالقوى العظمى السبعة أو رؤساء الملائكة فأنتج الواحد الثلاثة، وأنتج الثلاثة سبعة هؤلاء العشرة هم كل الأشياء (١٤٤).

وعلاوة على ذلك فإن المصطلحات المستخدمة في القبالاه – في كثير من المواضع- ولاسيما في كتاب الزوهار متطابقة تقريبًا مع المصطلحات المستخدمة في أسفار "دانيال" و"حزقيال" النبوية، وسفر الرؤيا في العهد الجديد، فمصطلح مثل الوحش، والعاهرة، والعديد من المصطلحات الرمزية الأخرى المستخدمة في سفر الرؤيا تستخدم في القبالاه بنفس المعنى على ما يبدو.(١٤٥)

كما قام "الزوهار" بتأويل مجموعة من المصطلحات المزدوجة المترابطة مثل الليل والنهار، بمعنى صوفي، واليمين واليسار، بمعنى صفات الألوهية، والتقارب بين هذه الصفات. أما العالم العلوي والسفلي فهو للإشارة إلى التمييز بين الله والملائكة أو الملائكة والبشر أو بين السماء والأرض(١٤٦).

وإذا انتقلنا إلى علة التأويل الرمزي للنصوص المقدسة عند القبالاه نجد أن هناك مجموعة من الأسباب التي تكمن وراء ضرورة التأويل الرمزي عند القبالاه أولها: أن هذا التأويل يستخدم كوسيلة أساسية لنقل الحقائق العميقة والرؤى الصوفية وذلك بسبب الحكمة الخفية، فتعاليم القبالاه محجوبة بطبقات من الرمزية والاستعارة مما يتطلب تأويلاً دقيقًا للكشف عن معانيها الخفية وهذا التخفي هدفه حماية المعرفة المقدسة من إساءة استخدامها أو سوء فهمها من قبل أولئك الذين ليس لديهم استعدادًا روحيًا لتقبلها أو تلقيها، الأمر الثاني: تعدد أبعاد المعاني الرمزية وهو الأمر الذي يسمح بالتأويل على المستويين الحرفي والميتافيزيقي، الأمر الثالث: تعمل الرموز على إقامة جسر بين العوالم: أي بين المادي والروحاني وبين المتناهي واللامتناهي، الأمر الرابع: التأمل الذاتي فتأويل رموز القبالاه هو تأويل ذاتي يدعو الأفراد إلى الانخراط الذاتي في التأمل مما يجعل لدى العقل الإنساني القدرة على استيعاب المفاهيم ويعزز النمو الروحي والبصيرة. الأمر الخامس: يهدف التأويل إلى فك رموز المعاني الخفية، والكشف عن الحقائق العميقة التي يمكن أن تؤدي إلى تحولات عميقة في الوعي والادراك. الأمر السادس: أن الرمزية والتأويل يعدان من

(143) W, Richard Ploplis, op.cit, p. 60.
(144) Sepharial: op.cit, pp. 54- 55.
(145) W. J Colville: op.cit, p. 70.
(146) Maurice Simon in his introduction to the Zohar, translated by Harry sperling and Maurice Simon, Vol. 2, The Soncino press, London and N.Y, 1931- 1934, pp. 397-398.

الجوانب الأساسية لنصوص القبالاه حيث يعملان كمفاتيح لكشف أسرار الكون، والروح، الإنسانية، وهي تدعو الباحثين إلى الشروع في رحلة من الاستكشاف، والاكتشاف مما يؤدي إلى رؤى عميقة وتحول روحي.[١٤٧]

إن التفكيك عند القبالاه له معنيين: ظاهر: يتمثل في نزع صفة القداسة عن النص الديني وإضفاء النزعة الإنسانية، وبالتالي يمكن تحديدها بحسب ظروف العصر. أما المعنى الباطن فيعني العودة إلى زمن البدايات أو زمن النقاء -على حد تعبيرهم- للنص المقدس الأصلي.

ب) تأويل القبالاه لخلق العالم:

تذهب القبالاه إلى أن خلق العالم تم عن طريق تلاقي الحروف الأربعة Y H V H صعودًا ونزولاً في عملية معقدة حتى يتم الاتحاد بينهما، والتلاقي للتعبير عن اتحاد الرحمة والشدة، وبالتالي فهما اثنان ينتميان إلى العالم العلوي، ويرمزان إلى المبدأ الذكوري، ولكن هناك حرف يصعد من الأسفل ليرتبط بهما يرمز إلى المبدأ الأنثوي؛ بحيث يصير الاتحاد لأنه عندما تم خلق العالم كانت الحروف العلوية هي التي جلبت إلى الوجود جميع أعمال العالم المادي حرفيًا وفقًا لنموذجها الخاص، وهو ما قاله الرابي "شيمون" تتكون كل الحروف من اندماج ذكر وأنثى معًا في اتحاد واحد يرمز إلى المياه العلوية، والمياه السفلية التي تشكل أيضًا اتحادًا واحدًا وهذه الحروف تشكل معًا وحدة رمزية لسر الاسم الإلهي الكامل[١٤٨].

أما الفيلسوف اليهودي "إبراهام أبو العافية " المتأثر بمنهج "ابن ميمون" الفلسفي السائد في ذلك الوقت فقد تبنى مفهومه عن العقل الفعال الذي ينبعث من الله ويوجه الخلق المادي، ويمكن للعقل الفعال أن يلامس العقل الإنساني عندما يتم تفعيله من خلال التأمل، وهكذا يمكن للإنسان أن يتلقى الفيض الإلهي، ولقد قام أبو العافية بتأويل عملية الخلق فرأى أنها حدثت من خلال الحروف الأبجدية العبرية والأرقام والكواكب والأبعاد المكانية وذهب إلى أن الحروف والكلمات لا تمتلك قوة في ذاتها وإنما الذات الإنسانية هي التي تحولها إلى قوة ديناميكية، فتقوم الحروف بتحويل الشخص الذي يتأملها[١٤٩].

كذلك فقد استهل سفر يتسيرا القابالي تأويله لعملية الخلق في الجزء الأول قائلاً "يارب الجنود الإله الحي، ملك الكون القدير، اللطيف الممجد الأبدي، الرحيم الأسمى القدوس، الذي قدر وخلق الكون من اثنين وثلاثين مسارًا للحكمة تكتنفها الأسرار (السفيروت العشر بالإضافة إلى اثنين وعشرين حرفًا يشكلان الأبجدية العبرية[١٥٠] ثلاث من هذه الحروف هي الألف والميم والشين وتستند إلى التوازن وهي الأمهات أو العناصر الأولى التي انبثقت منها المادة الأولية للعالم (الهواء والماء والنار)، والتي لها نظائر في الذكر والأنثى (الصدر والجسم والرأس) ولها نظائر في السنة (الرطوبة والبرد والحرارة)

(147) Hermes Astrology: op.cit, pp. 10-11.
(148) The Zohar: Vol. 2, op.cit, (159a), pp 110-111.
(149) Miriam Bokser Caravella: op.cit, pp. 325-332.
(150) Sepher Yezirah: op.cit, section 1, p. 14.

وتمثل الحروف السبعة المزدوجة الأخرى، والإثنى عشر البسيطة القدرة على التحمل التي انبثقت منها مجالات ووسائط أخرى للوجود، وشكل منها كل الكائنات الموجودة[١٥١].

لقد قامت القبالاه ولاسيما الزوهار بتأويل الكلمات الافتتاحية التي بدأت بها التوراة والتي لا خلاف على ترجمتها التقليدية "في البدء خلق الله" فهناك إجماع على أن هذه الآية تتحدث عن وصف خلق العالم، لكن الزوهار يؤول ذلك فيشير إلى بداية أقدم انبثاق للسفيروت عن طريق عين سوف إن هذا التأويل هو نتيجة الإصرار على قراءة الكلمات العبرية بترتيبها الدقيق (بي رشيت بار إلوهيم) لقد قام الزوهار بتحويل رواية الخلق إلى سيرة إلهية، وبالتالي فإن تعاليم الزوهار عميقة ومكثفة، وبالتالي على المؤول أن يكون حذرًا، فرسالة الزوهار لا تقدم للقارئ على طبق وإنما لابد من التفاعل مع النص والبحث عن المعنى الموجود فيما وراء الكلمات ومكنوناتها[١٥٢]

لم يستطع القباليون الأوائل قراءة الإصحاح الأول من سفر التكوين بوصفه الحدث الأول لقصة خلق السماوات والأرض والحيوان والنبات، لكنهم نظروا إليه بوصفه الفيض الإلهي للسفيروت العشر من الألوهية الخفية "عين سوف" وبالتالي رأوا أن الآيات الواردة بخصوص عملية الخلق يجب أن تقرأ على أنها وصف لعملية الفيض، وهذا هو الجانب الرمزي الخفي في الكتاب المقدس الذي لم يتم التصريح به، وهو ما عبر عنه الحاخام اسحق الأعمى وأتباعه في فهمهم للآية الأولى من الكتاب المقدس على أنها تخبر كيف انبثق سفيروت من "عين سوف"، وقرأوا الآية الأولى التي تقول في البدء خلق الله السماوات والأرض قراءة تأويلية رمزية "في البدء كانت الحكمة الإلهية المبدأ الأول الذي فاض عنه الخلق، ومروره عبر السفيروت العشر[١٥٣]، وهذه البداية ليس بداية زمنية فحسب ولكنها روحية وعقلانية.

وعلى ذلك راح مؤولو القبالاه يرون أن الأحداث الواردة في سفر التكوين في الإصحاحات أو الفصول الثلاثة الأولى لا تشكل وصفًا كاملاً لخلق العالم لكي يستند إليه علم اللاهوت، فعندما خُلق العالم لم يكن هناك سماء، وكان بإمكان الشخص الواقف على الأرض أن ينظر إلى الأعلى فيرى الله وأعمال السماء بوضوح دون أى عائق. ووفقًا لعلم القبالاه التقليدي كانت الأفكار الصوفية في بداية الزمان متاحة للجميع ومعروفة لكل البشر، لكن بعد ذلك مرت البشرية بسلسلة من الكوارث، حيث أعلنوا على سبيل المثال أن الطوفان لم ينته، فالبشرية تغرق روحيًا، وأن الطوفان ليس سوى استعارة للإرتباك والإضطراب التي شهدها التاريخ المعاصر[١٥٤].

وتنتقل التأويلات من العالم الطبيعي إلى العالم الغيبي فتقوم بتأويل قصة آدم وحواء "الخلق" الواردة في التوراة تأويلاً مجازيًا وليس حرفيًا، فالجنة تمثل الخلق على نحو ما ينبغي أن يكون مثل السقوط، فقد كان لدى "آدم" و"حواء" وعيًا لكنهما لم يكونا واعيين بذاتهما فلم يدركا أنهما عريانيين، فقد كانت خطيئة "آدم" و"حواء" هي الأكل من شجرة معرفة الخير والشر وعندما فعلا ذلك أصبحا واعيين بذاتهما، فقد أدركا ما فعلاه فخافا واختبئا من الله ونتيجة لذلك صنع الله لهما معاطف ثم طردا من الجنة ليصبحا كائنين

(151) Ibid, Chapter 2, Section 1, p. 20, and Section 8: 2, p. 18.
(152) Daniel C Matt: op.cit, pp xviii- xix.
(153) Joseph Dan: op.cit, p. 161.
(154) Pinchas Giller: op.cit, p. 5.

بشريين وأصبح من المحظور عليهما العودة إلى الجنة وشجرة الحياة، وتذكر القصة التوراتية شجرتين في الجنة: شجرة الحياة وشجرة المعرفة. أما بالنسبة للقبالاة فكانت شجرة الحياة والمعرفة شجرة واحدة لكن عندما قطف "آدم" و"حواء" الثمار تسبب هذا الأمر في انقسام الشجرة إلى شجرتين منفصلتين(١٥٥).

وتؤول القبالاه كذلك قصة جنة عدن وشجرة معرفة الخير والشر والثعبان والإغراء والطرد من الجنة بأن كل هذه الأحداث لها قدر كبير من المعنى من حيث فهم تطور الوعي، حيث يقدم الوعي الذاتي أربع حالات جديدة للوعي: حيث يطلق على وعي الوعي اسم "تيفريت" أى الجمال والتناغم، ويطلق على وعي القوة أو الطاقة بالعبرية "نيتساخ" أى النصر والثبات، ويطلق على وعي الشكل أو الصورة اسم "هود" ويعني المجد أو الروعة، ويطلق على الوعي بالمادة بالعبرية اسم "يسود"، هذه هي الحالات الأربع التي لها مظاهرها التي يمكن ملاحظتها من جانب القبالاه(١٥٦). إن الصورة الرمزية الواردة في سفر التكوين التي تظهر فيها الحياة بشكل بارز للغاية هي مجاز يهدف إلى عرض الصراع داخل أنفسنا عندما نسمع صوتان يناديان علينا أن نسير في اتجاهين مختلفين في اللحظة ذاتها، وبما أنه من غير الممكن أن نطيع كليهما فإن الخضوع لأحدهما يتطلب بالضرورة التمرد على املاءات الآخر. والقبالاة هي من وجهة نظر أتباعها هي من تساعد في فهم هذا الصراع(١٥٧).

ولقد ذهب حكماء القبالاه الأول في تأويلاتهم أنه قبل خطيئة آدم لم يكن هناك عالم مادي فقد كانت جميع الأرواح البشرية جزء من الروح الأصلية لآدم التي هي بمثابة شرارات ساقطة من روح آدم والتي بسبب الخطيئة أجبرت على النفي من العوالم الروحية إلى العالم المادي(١٥٨).

وإلى مثل هذا الرأي قام "إسحاق الأعمى" بتأويل سفر يتسيراه فرأى أن خلق العالم المادي –كما جاء في الكتاب المقدس- ورد في مرحلة لاحقة من عملية الخلق فقد حدثت المرحلة الأولى في المستوى الروحي داخل الألوهية الأبدية بوصفها الإرادة التي انبثق منها السفيروت العشر ومن فاعليتها في النهاية تم خلق العالم المادي(١٥٩).

وعلاوة على ذلك يذكر الزوهار أنه قبل وقوع "آدم" في الخطيئة كان متمسًا بالجمال فلم يتحمل أى مخلوق النظر إلى جماله، لكن بعد أن أخطأ تضاءل هذا الجمال، وانخفض طوله، وذلك لأن جمال "آدم" رمزًا يرتبط بالإيمان الحقيقي ارتباطًا وثيقًا(١٦٠).

ذلك لأن الخطيئة الأصلية عند القبالاه في الزوهار تكمن في فقدان الألفة مع الإلهي وهذه الخسارة يفقد معها الإنسان ثمرة تذوق المعرفة الخطابية كثمن يدفعه الإنسان، ويكمن التحدي الروحي في البحث عن ذلك الكنز المفقود دون التخلي عن الذات أو العالم(١٦١).

يؤمن القبالاه كما جاء في شروحاتهم وتأويلاتهم للزوهار بأن السؤال هو نصف الإجابة وبدون سؤال لا يوجد سبب للإجابة فمنهجهم في شروحاتهم التوراتية مختلفة جدًا

(155) Colin Low: op.cit, p. 114.
(156) Ibid, pp. 7-8.
(157) W, J Colville: op.cit, p. 116-117.
(158) Miriam Bokser Caravella: op.cit, p. 341.
(159) Ibid, p. 284.
(160) The Zohar: Vol. 2, op.cit, (142 b), p. 57.
(161) Daniel C. Matt: op.cit, p. xviii.

حتى عندما تكون الآية واضحة تمامًا فقد يشكك الزوهار في بنيتها وأحيانًا يتعمقون في البحث لدرجة تذهل القارئ[١٦٢]. ومن ثم كيف يقوم الحاخام اليعازر Elazar بتأويل الآية الختامية الواردة في قصة جنة عدن "وهكذا طرد الله الإنسان من جنة عدن" [التكوين ٣: ٢٤] يقول الحاخام اليعاذر نحن لا نعرف من طرد من: أى أننا لا نعرف عما إذا كان طُرد آدم أم لا؟ وهنا نجد المعنى التأويلي الصوفي هو البديل الصادم الذي يكمن في تلك العبارة الباهتة "أم لا"[١٦٣].

خلاصة القول فإن القبالاه تذهب إلى أن جميع العوالم خلقت من أجل الإنسان، فمتعة الخالق تكمن في إسعاد مخلوقاته وهدفه هو إرضاء مخلوقاته حتى يكشفوا عن عظمته ويحصلوا على كل البهجة أو المتعة التي أعدها لهم[١٦٤]. وهذه الفكرة تبناها فيما بعد كل من "وليم جيمس" W. James (١٨٤٢-١٩١٠) و"الفريد نورث وايتهيد" A. N. Whitehead(١٨٦١-١٩٤٧م) والفيلسوف اليهودي المعاصر "مارتن بوبر" M. Buber(١٨٧٨-١٩٦٥م) فقد ذهب هؤلاء الفلاسفة إلى أنه إذا كان طبيعيًا أن الإنسان بحاجة إلى الله، فالله بحاجة إلى الإنسان، فهو يستمد من إيمان الإنسان وإخلاصه عظمة وجوده[١٦٥].

فقد خلق الإنسان ذو إرادة هائلة تتناسب مع إرادة الخالق في منح المتعة، وترى القبالاه أن هناك عوالم نورانية تحصل على المتعة كمنحة أو هبة، وهناك عوالم مظلمة تتلقى المتعة بعد مرورها بعملية تطهير أو إصلاح من الأنانية، وهذا يتوقف على حرية الإرادة سواء بطريقة طوعية أو معاناة من أجل التطهر حتى أرواح الصالحين لا تصل إلى جنة عدن إلا بعد تدمير كل الأنانية التي وجدت على الأرض[١٦٦].

جـ] تأويل الشر والشيطان عند القبالاه :

إن الشر عند القبالاه هو نفس الشيطان الذي يسيطر على العالم من جوانب عديدة، ويمارس قوة عظمته، إنه في الحقيقة نفس الحية التي أسقطت آدم في الخطيئة فهو يغري البشر كي يجذب أرواحهم، وعندما يتمكن من السيطرة على الجسد تغادر الروح لأن الجسد أصبح مدنسًا، ومن ثم تخرج العديد من القوى الشريرة للسيطرة على العالم؛ لأن كل ما يحدث من شرور نتيجة لهذه القوى، فجميع شئون العالم تخضع لحكمه؛ حيث إن لديه مرؤسين، وأعوان يتدخلون في جميع أنشطة العالم، وبالتالي يطلق عليهم الطرف الأيسر، فهو طرف كل جسد، وليس طرف كل روح، وكل منهما طرف بالمعنى الصوفي، لكن أحدهما يرأس الجسد، والآخر يرأس الروح: الأول هو الطرف الخارجي أحدهما يمين والآخر يسار: أحدهما مقدس والآخر مدنس[١٦٧].

---

(162) Daniel C. Matt: op.cit, pp. xvii- xviii.

(163) The Zohar: vol.1, Translation and commentary by Daniel C. Matt, Vol:1, Stanford university, Pritzker, edition, California, 2004, (1: 53b).

(164) Michael Laitman: Basic consents of Kabbalah, op.cit, pp. 72- 74.

(١٦٥) علي حسين قاسم، الله والإنسان في الفكر اليهودي المعاصر، المكتبة المصرية، الإسكندرية، ٢٠٠٣م، ص٨٨-٨٩.

(166) Michael Laitman: path of kabbalah, op.cit, pp. 62- 66.

(167) The Zohar: op.cit, (152b), p. 89.

إن قوة الشر يشار إليها كثيرًا في الزوهار باسم الطرف أو الجانب الآخر other side ويرى أنها تمثل فيضًا موازيًا لفيض السفيروت، لكن أصل تلك الحقيقة الشيطانية الموازية للألوهية والتي تسخر منها ليس في قوة أخرى بعيدة، فالحقيقة الشيطانية تمخضت من خلل في الآلهة وتتدفق في النهاية من نفس المصدر الذي ينبع منه كل شيء آخر أي المصدر الوحيد للوجود(١٦٨).

فهناك شجرة كاملة من الشر الشيطاني تحت الملكوت على العكس تمامًا من الشجرة الطيبة فوقها، ووفقًا لغنوصية فالنتين Valentinus (١٠٠م-١٦٠م) فإن كل شيء لديه ملاك حارس يرافقه طوال حياته، فالملاك هنا هو الذات الإلهية، وهذا الاعتقاد جزء من التقاليد القبالية(١٦٩).

وعلى ذلك تتحدث القبالاه عن الشياطين التي تشوه وتنفر من السفيروت فهي تتحدث عن التنين الأعظم Great Dragon أو Theli الذي يمثل القوة المركزية الذي يتطابق مع ليفاثان Levithan أو الوحش الوارد في سفر الرؤية أو الثعبان القديم الذي كان مسعاه اختراق جنة عدن وأخيرًا بمعنى أكثر ظاهرية هو الشيطان(١٧٠). فالشياطين هي أكثر أشكال العالم نقصًا وتتوافق درجاتهم العشر مع درجات السفيروت، ولكن بنسب عكسية حيث تزداد الظلمة والنجاسة(١٧١).

ولقد جاء في الزوهار –الجزء الأول- أن الروح الفاضلة التي تنجو من هذه الشياطين تصل إلى السماء وتتلقى رسالة إلهية(١٧٢). لكن السؤال المطروح ما الدور الذي يقوم به الشيطان عند القبالاه؟

يؤدي الشيطان في القبالاه دورًا محوريًا؛ فإذا كان أتباع القبالاه يعبدون الإله الذي يعزز الاتحاد السماوي بين الابن والابنة فهم أيضًا يعبدون الشيطان الذي يحب الصلوات اليهودية والأعمال الطيبة إذ يؤدون طقوس وصلوات بهدف استعطاف الشيطان وتضليل الملائكة (من وجهة نظرهم آلهة سماوية) الذين يتحكمون في الأبواب التي تدخل من خلالها الصلوات إلى السماء، فالملائكة لا تفهم إلا العبرية، أما الآيات الآرامية فهي تثير حيرتها لأنها غبية نوعًا ما فهي أقل ذكاء بكثير من القباليين، وفي هذه اللحظات يتم فتح الأبواب لتصل جميع الصلوات بما فيها العبرية إلى السماء، كما أن هناك صلوات الهدف منها استرضاء وكسب الشيطان في صالحهم فهم يقدمون بعض الأضحية للشيطان مثل تقديم سبعين ثورًا كأضحية خلال السبعة أيام من عيد الخيام الديني؛ وذلك على اعتبار أن الشيطان حاكم غير اليهود لإشغاله حتى لا يتدخل في اليوم الثامن عندما تقدم الأضحية للرب(١٧٣).

ولقد نادت القبالاه بمصطلح التصحيح –كما سبق أن أوضحنا- فأكدت على أن النقطة الأساسية في التصحيح هي أن ينظر الإنسان إلى ذاته أو طبيعته الإنسانية بوصفها أساس كل شر، وهو الأمر الذي يتطلب تدخل المجتمع، ويرتبط التصحيح في القبالاه بالقصد أو

---

(168) Arthur Green: op.cit, p. xlvi.
(169) Colin Low: op.cit, pp. 33-34.
(170) The kabbalah unveiled: op.cit, paragraph 25, p. 51.
(171) Ibid, paragraph 61, p. 30.
(172) The Zohar: Vol.1, op.cit, (1: 130 a).
(١٧٣) إسرائيل شاحاك: اليهود واليهودية (ثلاثة آلاف عام من الخطايا)، ترجمة ميادة العفيفي، ميريت للنشر والمعلومات، القاهرة، ٢٠٠٣م، ص٦١- ٦٤.

النية في التحول من الأنا إلى فضيلة الإيثار أو الغيرية التي تعتمد على العقل والإرادة، ويترتب عليها العطاء والمحبة والبذل والتضحية من أجل تقديم العون للآخرين ومن ثم يشعر فيها الإنسان بالمتعة والسعادة من أجل أن يصل إلى الخالق.

إن الغرض من كل قوانين التطور عند القبالاه هو التعرف على الخير والشر في داخلنا ومراعاة القوانين الروحية التي تخلص الإنسان من كل الشرور؛ لأن مصدر كل شر هو الأنانية التي تتعارض مع طبيعة الخالق الذي يرغب في أن يمنح الإنسان الخير فقط، فالقرب من الخالق متعة والبعد عنه معاناة، فهو يكره الأنانية وبالتالي يتعين على البشر كراهيتها اعتمادًا على مدى تطورهم، فالقبالاه لم تعط للمخلوقات من أجل رفاهيتها ولكن اعطيت لهم كتعليمات بهدف تحسين الذات[١٧٤]، فعندما يتطهر الإنسان من الأنانية فإنه يصعد تدريجيًا عبر جميع العوالم الروحية[١٧٥].

إن القبالاه تعتبر أن التعاليم التي تشير إلى العلاقات الشخصية بين البشر أكثر أهمية من واجباتنا تجاه الخالق، ذلك لأن الواجبات الاجتماعية تؤدي إلى سرعة إبادة الأنانية[١٧٦].

فالقبالاه لا تفترض ضعف الإنسان أو خطيئة بل تتبنى وجهات نظر بطولية واضحة فيما يتصل بالطبيعة الإنسانية، فهي لا تتردد في فرض مبدأ العقاب والثواب وهي مصطلحات مضللة إلى حد كبير في كثير من الأحيان، لأن العقوبة يمكن تغييرها في أى وقت بأمر الله استجابة لتوسلات البشر[١٧٧].

كذلك فإن القبالاه لديها الكثير لكي تقوله عن روح الشر في مقابل الخير فوجهة النظر التي يتبناها القباليين المستنيرين عن الشر ذات شقين حيث يتم ذكر الشر بصورة إيجابية بوصفه تحولاً للخير وسلبًا بوصفه حرمان من الخير لأنها تؤمن بوجود الشر في العالم شأنه شان وجود الخير وذلك عندما نتحول وننتهج طريق الوصول إلى العالم الروحي هذا العالم الذي يقضي على كل أنانية موجودة بداخلنا[١٧٨].

هذه الفكرة القابالية أخذها "وليم جيمس" وطوعها بما يتفق مع أصول مذهبه البراجماتي وعبر عنها بمصطلحات الموقف الداخلي Inner Attitude الذي يعني نوعًا من التحول بالنسبة لتوقعنا للشر من أجل مجابهته أو مواجهته، فأكد على أن كثيرًا مما يطلق عليه شر يعود أساسًا في مجمله إلى طريقة تعامل البشر مع هذه الظاهرة، فغالباً ما يتم تحويل الشر إلى دعامة قوية للخير وذلك عندما يرتقي الإنسان بذاته عن طريق تغيير بسيط لمعاناة الموقف الداخلي النفسي وذلك بالتحليق بعيدًا، ومن ثم يتحول الشر إلى متعة مما يجعل الإنسان مرتبطًا بفضيلة السعادة[١٧٩].

ولقد قام "إسحق لوريا" بتأويل الشر تأويلاً غنوصيًا على أنه نوع من البقايا أو الفضلات الناتجة عن العملية العضوية للحياة الإلهية الخفية وهذا التأويل يشبه إلى حد كبير أساطير الغنوصية في العصور القديمة حيث وجود الشر بطبيعته مستقلاً عن الإنسان

(174) Michael Laitman: Basic concepts in kabbalah, op.cit, p. 43.
(175) Ibid, p. 24.
(176) Ibid, p. 68.
(177) W, J Colville: op.cit, p. 132.
(178) Ibid, p. 127.
(179) W. James: The Varieties of Religious experience, A study in human nature, Routledge Taylor and Francis Group, London and N.Y, 2004, p. 74.

ومنسوجًا في نسيج العالم أو بالأحرى في وجود الإله، ومع ذلك فقد تراجعت الغنوصية إلى السحر والصوفية الزائفة[١٨٠].

إن الملكوت يرتبط عادة بأنواع مختلفة من الشر الجوهري ولكي نفهم هذا الموقف فمن الضروري أن نتوقف عند السؤال الذي طرحه حاخامات القبالاه في القرن الثالث عشر هل يمكن أن يكون الإله شريرًا"؟ لقد كانت الإجابة على هذا السؤال بصفة عامة بالإيجاب أي أن الله يتسم بسمة الشر لكن بعد سلسلة من التحولات التي مر بها حاخامات القبالاه في محاولة منهم لتجنب هذا الاستنتاج غير المقبول من وجهة نظر الكثيرين الذين وجدوا أنه من الصعب قبول أن المجاعة أو الحرب أو المرض أو التحيز والكراهية أو الموت يمكن أن تكون جزءًا من موجود كامل، وبالتالي كان لابد من وجود طريقة لتأويل الشر لا تلوث الكمال الإلهي[١٨١].

د] عنصرية القبالاه في الفكر الحديث وأهم الانتقادات التي وجهت إليها:

هناك عدد كبير من المفكرين المسيحين[١٨٢] قد وقعوا في أسر القبالاه في القرنين السادس عشر والسابع عشر وكانوا من أتباعها المخلصين. ولقد عززت القبالاه في العصر الحديث ولاء اليهود للشريعة اليهودية، لكنها في الوقت ذاته قامت بعمل نظام موازٍ للشريعة اليهودية مما خلق مجموعة خاصة من التوترات الخاصة بها بدليل أن أتباع الشريعة الأول لم يتجهوا صوب القبالاه[١٨٣].

---

(180) W, Richard Ploplis, op.cit, p. 55.

(181) Colin Low: op.cit, p. 130.

(١٨٢) لعل من أهم هؤلاء المفكرين "جون روسلان" John Reuchlin (١٤٥٥-١٥٢٢) و"كورنيليوس هنري أجريبا" Cornelius Henery Agriba (١٤٨٦- ١٥٣٥)، و"روبرت فلود" R. Flueld (١٥٧٤- ١٦٣٧) و"يوحنا باتيست فون هلموت" J. B. Von Hemont (١٥٨٨- ١٦٤٤) و"هنري مور" H. More (١٦١٤-١٦٨٧)، وغيرهم فقد بحث هؤلاء الفلاسفة جميعا بلا كلل عن نظام علمي يكشف لهم عن أعماق النظام الإلهي.

انظر:

(W. J. Colville, op.cit, p. 24)

وعلاوة على ذلك فقد اعتقد البعض منهم أنها تتضمن مفاتيح من شأنها الكشف عن أسرار خفية في الكتب المقدسة، وحاول آخرون العثور على عقائد في القبالاه من شأنها تحويل اليهود إلى المسيحية، ومنه من أدرك في القبالاه موضوعات كانوا على دراية بها بالفعل في الأدبيات الهرمسية والأفلاطونية المحدثة. كذلك كان فلاسفة عصر النهضة مثل "جيوفاني بيكو ديلا ميراندولا" G. Pico Della Mirandola (١٤٦٣- ١٤٩٤) على دراية بالقبالاه ومزجها بالغنوصية والفيثاغورية والهرمسية والأفلاطونية المحدثة لتشكيل تقاليد استمرت لعدة قرون ربما يكون من الدقة القول أنه منذ عصر النهضة فصاعدًا كان لدى جميع الفلاسفة والسحرة الأوروبيين البارزين معرفة عملية ببعض جوانب القبالاه. انظر: (Colin Low, op.cit, p. 2)

إن ما يشغل أتباع القبالاه في العصر الحاضر هو قضية مفادها أن الطبيعة تتحقق من خلال تزامن الرمزية مع مسار الأحداث الدنيوية، فالرمزية تمتد إلى ما هو أبعد من الدائرة أو الصليب أو الشكل الهندسي فهي تمتد إلى الكون بأكمله، فتأويلات القبالاه تضع في الاعتبار تطور الجنس البشري ككل والوصول إلى ما يسمى بالرمزية العالمية.

انظر:

- (Sepharia, op.cit,p. 15).

(183) Louis Jacobs: op.cit, p. 64.

وإذا كانت القبالاه تهدف إلى تقديم رؤية صوفية للموضوعات التي تتناولها؛ إلا أن ذلك لا يعفيها من نظرتها البغيضة والعنصرية تجاه الآخر، فقد اعتبرت القبالاه اللوريانية الدم اليهودي له الأفضلية على دم غير اليهودي الذي ليس له قيمة جوهرية بالنسبة لليهود المتدينين، وهذا المبدأ معروف جيدًا في إسرائيل على الرغم من عدم تأييده بشكل عام في إسرائيل(١٨٤).

إن غير اليهود عند القبالاه ينتمي للعالم الفرعي للشيطان، فروحه أدني من روح اليهودي الذي يمتلك على الأقل إمكانات الوصول للبعد المقدس "الإلهي" وتستند القبالاه في رمزيتها الفاتنة إلى سابقة تلمودية تحكي أن حواء قد لقحتها أفعى شيطانية، ومن ثم فقد تلوثت بذورها، وظل الأمر كذلك حتى أزاح التجلي السيناوي (تجلي الله لـ "موسى" في سيناء) هذا التلوث (النجاسة) عن إسرائيل. وبالتالي فقد قدم القبالليون رؤيتهم الخاصة عن عقيدة الخطيئة الأصلية لغير اليهودي أنه كان ابنا نجسًا (ملوثًا) نتيجة اتصال جنسي بين امرأة وأفعى هي رمز للقوى الشيطانية، وما دام غير اليهودي لم يمر بتجربة التطهر من خلال وحي الله فإنه يظل نصف إنسان ونصف شيطان(١٨٥). هذا إن دل على شيء فإنما يدل على الطابع الأسطوري التلمودي للقبالاة.

لقد وجدت الكراهية التلمودية للأغيار وفي أقوى أشكالها في التراث الصوفي الوسيط وما بعد الوسيط خاصة في كتاب الزوهار والقبالاة اللوريانية فقد جاء هذا التراث حافلاً بالاختلاف التام في الجوهر بين اليهودي وغير اليهودي فقد نظر التلمود والزوهار إلى الحياة الزوجية والخلقية لغير اليهودي نظرة دونية منحطة تفتقر إلى القيم الخلقية، وليس لدى غير اليهودي الرغبة في تجاوز الماديات وبالتالي يجهل ما هو مقدس(١٨٦).

ولقد جاء في الزوهار العديد من المقاطع العنصرية نذكر منها أنه بعد أن اكتسب إبراهيم الحكمة قرر أن ينفصل عن جميع الأمم الأخرى وأن لا يدخل معها في علاقات نسب أو زواج ومن هنا نقرأ (وأحلفك بالرب إله السماء وإله الأرض ألا تأخذ زوجة لإبني من بنات الكنعانيين(١٨٧). وتذهب القبالاه أيضًا إلى أن الله من الممكن أن يعلق قوانين الطبيعة لانقاذ حبيبه الذي يحزن مع إسرائيل على تدمير هيكلهم المشترك كما يعاني معهم آلام المنفى كل هذا انتقل بأمانة إلى الخيال القبالي(١٨٨).

ومما هو جدير بالملاحظة أن مسألة مرجعية الزوهار لم تطرح موضع تساؤل إلا مع انتشار أفكار تنويرية في القرن العشرين فقد أسهمت كتابات شوليم والفيلسوف الإسرائيلي "أشعيا تيشبي" I. Tishpy (١٩٠٨-١٩٩٢م) وعلماء القبالة الذي تبعوهم في جعل الزوهار مفهومًا للمعاصرين وتحديد الاهتمام بدراسته. ويعد كتاب تيشبي حكمة الزوهار The Wisdom of the Zohar الذي ترجمت منه مقاطع من الآرامية إلى العبرية محاولة مهمة للغاية لجعل الزوهار في متناول القراء الإسرائيلين المثقفين ثم امتد

---

(184) Axel Stahler: The Aesethics of fundamentalism in recent Jewish fiction in English, An Essay in fundamentalism and liberation, ed. By Catherine peso-Miqual and Klaus Stierslofar Palgrave Macmillan, England, 2007, p. 66.

(١٨٥) الان انترمان: اليهود وعقائدهم الدينية، وعباداتهم، ترجمة وتقديم د عبدالرحمن الشيخ، مراجعة د أحمد شلبي، (سلسلة الألف كتاب الثاني)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٤، ص٣٧٥.

(١٨٦) المرجع السابق نفسه، ص٣٧٤.

(187) The Zohar: Vol: 2, op.cit, (131b), p 24.

(188) Arthur Green: op.cit, p. xxxi.

الاهتمام الفكري للقبالاة لدوائر أوسع شملت العديد من المهتمين بالمسائل الرمزية وفلسفة اللغة[١٨٩]. وتمضي القبالاه في عنصريتها فتذهب إلى أنه يتعين على شعب إسرائيل أن ينقل حكمة القبالاه إلى جميع الأمم من أجل بلوغ النقاء العظيم، فإذا لم تنقل إسرائيل معرفة العوالم الروحية إلى بقية العالم فلن يتمكن العالم من أن يصبح مكانًا أفضل وأسعد، وهذا ما تعرفه الشعوب الأخرى، ولكن دون وعي وتعبر عنه في كراهيتها لإسرائيل، ومن ثم لا يوجد سوى حل واحد لجميع المشاكل وهي أن نؤدي مهمتنا في هذا العالم لأن هذه الأمة اختيرت لهذا الغرض على وجه التحديد. والزوهار وحده هو الذي سوف يساعد بني إسرائيل على الخروج من المنفى[١٩٠]. وقد بالغ الزوهار في عنصريته لدرجة تشبيهه لشعب إسرائيل بوردة في وسط الأشواك، ويصف الشعب المختار بثلاث عشرة صفة من صفات الحكمة والرحمة التي تحيط به من كل جانب[١٩١].

ويعد المفكر القابالي "يهودا أشلاج" هو أبرز مفكريها المعاصرين من أصحاب النزعة العنصرية حيث قضى حياته في تأويل القبالاه ونشرها في جميع أنحاء إسرائيل والعالم بأسره ويقال أنه تنبأ بسقوط الشيوعية في روسيا وتنبأ بالعولمة قبل وقت طويل من وضوح معالمها، وقدمها في سياق التصحيح الروحي للبشرية[١٩٢].

ولم يكتف "أشلاج" بوضع أفكاره على الورق بل عمل على الترويج لها فالتقى بشخصيات بارزة مثل المفكر اليهودي "حاييم نحمان بياليك" Chaim Bialik Nachman (١٨٧٣-١٩٣٤) و"ديفيد بن جوريون" David ben Gurion (١٨٦٦-١٩٧٣) أول رئيس وزراء لإسرائيل و"زالمان شازار" Zalman Shazar (١٨٨٩-١٩٧٤) الرئيس الثالث لدولة إسرائيل وغيرهم الكثير فقد كتب "ابن جوريون" في مذكراته أنه التقى "يهود أشلاج" عدة مرات، وأن هذه اللقاءات كانت مفاجئة بالنسبة له، حيث أراد بن جوريون أن يتحدث معه عن القبالاه لكن "أشلاج" تحدث معه عن الاشتراكية[١٩٣].

وعلى ذلك قد لا نبالغ كثيرًا إذا قلنا بأن تصرفات الاتجاه اليميني المعاصر في إسرائيل الآن يستلهم أفعاله وشعاراته ومقاصده، والخطى التي يرسمها لمستقبله من عنصرية القبالاه التي وصفت حاخاماتها بأن لديهم من الأسرار والحقائق العلوية التي لا تتأتي لأحد، ولا يستطع أعظم المؤولين الوصول إلى مكنوناتها، ومن ثم فإن القبالاه وتعليماتها وتأويلاتها البغيضة المزعجة موجودة بعمق داخل الحركة الصهيونية.

فالقبالاة موجودة بعمق في قلب أسرار إسرائيل الخفية، فنظرتها إلى فلسطين هي النظرة الإسرائيلية ذاتها من الرغبة في الاستيلاء على الأرض وتنظر إليها بوصفها المركز الحقيقي وقلب العالم، فقد جاء في الزوهار بأن القدوس أقسم ألا يدخل أورشليم العليا (السماوية) حتى يعود إسرائيل إلى أورشليم السفلى أي الأرضية[١٩٤].

---

(189) Ibid, p. lxxvi.
(190) Michael laitman: path of kabbalah, op.cit, p. 150, p. 164.
(191) The Zohar: Vol:1, op.cit, (1: 1a).
(192) Michael Laitman: kabbalah for Beginners, pp. 40-42.
(193) Ibid, p. 43.
(194) The Zohar: Vol. 2, op.cit, pp. 184-185.

وهذا معناه أن الكمال الروحي مرتبط ارتباطًا وثيقًا بعودة شعب إسرائيل إلى أورشليم الأرضية وعلى ذلك فإن الحديث عن عنصرية إسرائيل يقودنا إلى الحديث عن أبرز الانتقادات التي وجهت للقبالاة.

أهم الانتقادات التي وجهت للقبالاه:

لقد كرست القبالاه لعدم المساواة فيما يتعلق بالوصول إلى المعرفة الروحية، كما أن السرية المحيطة بتعاليمها تعزز التضليل والاستغلال من جانب أولئك الذين يدعون المعرفة الباطنية وهو الأمر الذي دفع بعض النقاد لرفضها بوصفها تأويلات ذاتية تفتقر إلى الأدلة التجريبية أو التبرير العقلاني، وكذلك تشكيكهم في المعرفة التاريخية المتعلقة بصحة تعاليمهم ومدى أصالتها بوصفها تقليدًا صوفيًا يهوديًا من عدمه وذلك بسبب ما انطوت عليه من عناصر من التقاليد الصوفية غير اليهودية(١٩٥).

لم تجد القبالاه ترحيبًا كبيرًا لدى المفكرين اليهود المستنيرين الذين رفضوا بشدة أن يكون كتاب الزوهار مصدرًا شرعيًا لتأويل التوراة في ظل الأجواء الفكرية المستنيرة التي اعتبرت القبالاه وصمة عار سوداء على نسيج اليهودية الخالصة(١٩٦).

كذلك يغلب على النصوص القبالية طابع التبني الانتقائي للرموز والممارسات القابالية منفصلة عن سياقها الثقافي والديني الأصلي، مما يجعلها مجرد اتجاهات سطحية أو نزوات العصر الجديد، كما يغلب على النصوص أيضًا التحيز الأبوي مع تهميش النساء، وبالتالي عدم المساواة بين الجنسين(١٩٧).

كذلك فإن اعتماد القبالاه على الأساطير والرموز يجعلها وثيقة الصلة بالماسونية والحركة الصهيونية علاوة على تقديمها الدعم والتأييد للحجج الشوفينية والعنصرية لصالح التفوق اليهودي، فإسرائيل من وجهة نظر القبالاه هي المنوطة بتحقيق التوازن والخلاص في العالم.

الخاتمة

أهم النتائج التي توصل إليها البحث

أولاً: القبالاه في مجملها مزيج من الغنوصية اليونانية والبنية الثيوصوفية، والميتافيزيقا، وعلم النفس، والأساطير وعلم التنجيم والديانات الشرقية القديمة (لاسيما المصرية القديمة، والهندوسية، والبوذية، والمانوية)، بالإضافة إلى الأفلاطونية المحدثة التي تبنت القبالاه أفكارها الرمزية، وبالغت في ذلك لدرجة أنها اعتبرت كل ما جاء في التوراة من روايات يعد أمورًا مجازية رمزية، كما تلتقي مع الشامانية Shamansim في ممارستها للسحر والتصوف، وتلتقي مع الماسونية في الاعتماد على اللغة الرمزية فكل منهما يعول على الأرقام والأشكال الرمزية.

(195) Hermes Astrology: op.cit, pp. 41-42.
(196) Isaiah Tishby: The wisdom of the Zohar an anthology of texts, Vol.1, Trans by David Goldstein Oxford university press, Oxford, 1989, p. 43.
(197) Ibid, p. 42.

ثانياً: رفضت القبالاه أن تصنف نفسها كديانة أو عقيدة، لكنها نظرت إلى ذاتها من خلال تأويلاتها بوصفها حكمة مرتبطة ببناء وبنية العوالم الروحية والأسرار الخفية؛ ذلك لأنها تتميز عن سائر الحركات الصوفية بالإرادة والرغبة والشعور بالخالق، فهي ليست مجرد بحث نظري فحسب بل طريقة عملية هدفها سعادة الإنسان والوصول إلى الروحانية.

ثالثاً: استندت القبالاه في أفكارها وتعاليمها على مصادر متعددة لعل أهمها التوراة والتلمود، وسفر يتيسيراه الذي يعد من أقدم الكتب العبرية، وكذلك سفر الباهير، وكتاب الزوهار، بالإضافة إلى الأسفار الرؤيوية في العهد القديم مثل سفر حزقيال وأشعيا، وسفر المزامير، ورؤي يوحنا اللاهوتي، علاوة على أفكار من فلسفات وديانات شرقية، وكل ذلك من خلال تأويلات آباء القبالاه الذين يؤمنون بهم أمثال إبراهيم، وموسى، وشيمون بار يوحاي، وموسى الليوني، واسحق لوريا، ويهودا أشلاخ.

رابعًا: يقوم فكر القبالاه المركزي على شجرة الحياة المقلوبة المكونة من عشر سفيروت تركز على صفات الإله؛ فالجذور تبدأ بالإله وتاجه السماوي وتنتهي الشجرة بالملكوت، فهي من حيث الشكل شبيهة بشجرة المعرفة عند ديكارت.

خامساً: انطوت تعاليم القبالاه وتأويلاتها على شقين: أحدهما نظري يركز على المعرفة التي انبثقت من الفيض الإلهي، وشق عملي يركز على الأعداد والحروف العبرية والرموز والتمائم، وهذا الطريق وسيلة لتحقيق غاية يعتقدون أن لها تأثير على العوالم السماوية والأرضية فهي أقرب ما تكون إلى السحر والشعوذة.

سادسًا: لقد حاولت القبالاه الكشف عن البنية الروحية المحيطة بنا في العالم والاقتراب من الخالق، والعلاقة مع الآخرين، وركزت على رمزية الأرقام والحروف والكلمات والقيمة الرمزية للكون وأهميتها الضرورية في حياتنا اليومية.

سابعًا: هدفت القبالاه الوصول إلى أعماق جديدة في الروح، فهي في رأي أتباعها تتجاوز العلم وآفاق الفلسفة؛ فإذا كان العلم يفسر ويوضح آليات الحياة فإن القبالاه توضح غرض الحياة.

ثامنًا: اتسمت القبالاه بأنها دعوة إلى التأويل والتفكيك؛ فهي نظام معقد من المعتقدات الدينية وليس مجرد طقوس أو أفعال بل يتعلق الأمر برموز باطنية غامضة عن الله والكون، وبالتالي فإن الشغل الشاغل للقبالاة هو التطلع لفك رموز الأسرار الإلهية الخفية الخاصة، وهي تختلف كلية عن تأويلات فيلون النسقية للكتاب المقدس.

تاسعاً: تحدثت القبالاه عن الحاسة السادسة دون أن تعطيها اسمًا لكن من خلال دراستنا للقبالاة نجد أن هذه الحاسة لديها القدرة على الوصول إلى الخالق، وبالتالي فهي أقرب ما تكون إلى الروح.

عاشراً: لقد ارتبطت القبالاة بالصهيونية والماسونية فبالغت في نزعتها العنصرية المعادية لغير اليهود وقد انعكس ذلك على تأويلاتهم الخادعة والمتطرفة بحق الآخر وبالتالي قدموا تبريرات للعنف والاستيلاء على الأرض.

أهم المصادر والمراجع

1) Astrology (Hermes): Kabbalah and the tree life: the astrologer's guide, maslering chart interpretation 2024, http://hermesastrology.substack.com/p/your-free-book.
2) Caravella (Miriam Bokser): The Mystic heart of Judaism science of the Soul research centre, Themson press LtD. New Delhi, India, 2011.
3) Colville (W. J).: Kabbalah: The Harmony of oppsites, A treatise Elucidating Bible Allegories and Significance of Numbers, Macoy publishing and Masonicy Supply Co., N.Y, 1916.
4) Dan (Joseph): Gershom Scholem and the Mystical Dimension of Jewish History, NYU, Press, New York, 1987.
5) Dennis (Rabbi Geoffery W): What is Kabbalah, what is Kabbalah? Reform Judasim org, Jewish life in Your life, union for freedom Judaism, http://reformjudaism.org.belifs,practices/spirituality/what- Kabbalah,2024
6) Elia (Antony J.): An Historical Assessment of the narrative uses of the words Kabbalah, Cabala, Qabalah, theological liberarianism, Vol: 2, No. 2, November, December.
7) Giller (Pinchas): Kabbalah: A guide for perplexed, Bloomsbury, T& T. Clark, London, 2012.
8) Ginsburg (Rabbi Yitzchak): What you need to know about Kabbalah, Dwelling place publishing, U.S.A, 2006.

9) Green (Arthur): in his introduction to the Zohar, Translation and Commentary by Daniel C. Matt, Vol: 1, Stanford university press, Stanford California, 2004.
10) Horwitz (Noah): Reality in the name of God or, Divine insistence: An Essay on creation infinity and the ontological implications of Kabbalah, Punctum books, California, 2012.
11) Jacobs (Louis): A tree of life, Diversity Flexibility and Creativity in Jewish Law, 2nd ed., The Littman library of Jewish Civilization, Oxford, Portland, Oregon, 2007.
12) James (W): The Varieties of Religious experience, A study in human nature, Routledge Taylor and Francis Group, London and N.Y, 2004.
13) Kalisch (Isidor): in his preface to sepher Yezirah: A book on creation or the Jewish Metaphysics or remote antiquity, Tran by Rev. Dr. Isidor Kalisch, L. H. Frank and Co. publishers, Supreme Grand lodge of the Ancient Mystical order Rosae Crucis, California, 2015.
14) Laitman (Michael): The path of Kabbalah, laitman Kabbalah Kabbalah publishers, Toronto, Canada, 2005.
15) _____: Basic concepts in Kabbalah, Laitman Kabbalah publishers, Tornto 2006.
16) _____: Kabbalah for Beginners, 4th ed., Laitman Kabbalah publishers, U.S.A, 2007.
17) _____: Kabbalah: Revealed, Laitman Kabbalah publisher, U.S.A, 2007.
18) _____: The Zohar, Laitman Kabbalah publishers, N.Y, 2009.
19) Low (Colin): A depth of Beginning, Notes on Kabbalah, www.religion studies. Ir/en/node/8/677, Deph-beginning-notes Kabbalah, 2001.
20) Margoliouth (George): The Doctrine of the Either in the kabbalah, the Jewish Quarterly review, Vol: 20, No.4, July 1908.
21) Ploplis (William Richard): The Great name of God: A study of the Element of Kabbalah, the Loyola university, PhD in philosophy, Chicago, 1981.

22) Rebiger (Bill): The Early oponents of the Kabbalah and the role of sceptic Argumentations: An outline, ed., by Giuseppe veltri and Bill Rebiger, De Guyter, Berlin and Boslon, 2016.
23) Scholem (Gershom): on Kabbalah and its symbolism. Translated by Ralph Manheim, Schocken Books, New York, 1969.
24) _____: Origins of Kabbalah ed., by R. J. Zwi Wer Bloesky, Trans from German by Allan Arkush, The Jewish publication society, Princeton university, 1987.
25) Sepharial: The kabbalah of numbers, the university of Illinois, Urbana Champaign Brittle Books project, U.S.A, 2012.
26) Simon (Maurice):, In his introduction to the Zohar, translated by Harry sperling and Maurice Simon, Vol. 2, The Soncino press, London and N.Y, 1931- 1934.
27) Smith (Margaret, Gurewitz): Marriage, Mother hood and the matriachs in the Zohar, An Essay in Jews and Gender, ed, by Leonard J. Greenspoon, Purdue university press, 2021.
28) Stahler (Axel): The Aesethics of fundamentalism in recent Jewish fiction in English, An Essay in fundamentalism and liberation, ed. By Catherine peso- Miqual and Klaus Stierslofar Palgrave Macmillan, England, 2007.
29) Tapper (Aaron J. Hahn): Will the Real Jew please standup ! karaites, Israelites, Kabbalists, Messianists and the politics of identity, An Essay in who is a Jew? Ed, by Leonard J. Green spoom, Purdue university press, 2014.
30) The Kabbalah unveiled: containing the following books of the Zohar: the book of concealed Mystery, the greater holy assembly, the lesser holy assembly, translated into English from the Latin versions of knorr von resenroth by .SL. Mac Gregor Mathers and collated with the original chaldee and Hebrew text, the sophical publication, Co. N.Y, 1912.

31) The Zohar: Vol, 2, Translated by Harry Sperling and Maurice Simon, the soncino press London and N.Y, 1931, 1934.

32) Tishby (Isaiah): The wisdom of the Zohar an anthology of texts, Vol.1, Trans by David Goldstein Oxford university press, Oxford, 1989.

33) Yezirah (Sepher): A book on creation or the Jewish metaphysics or remote antiquity, Trans by Rev. Dr. Isidor Kalisch, L H. Frank and Co. publishers, Supreme Grand Lodge of the Ancient Mystical order Rossae Cruces, California 2015.

ثانيا: المراجع العربية والمترجمة إلى العربية

١) انترمان (الان): اليهود وعقائدهم الدينية، وعباداتهم، ترجمة وتقديم د/ عبدالرحمن الشيخ، مراجعة د أحمد شلبي، (سلسلة الألف كتاب الثاني)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٤.

٢) أنسيلم: ترجمة د/ حسن حنفي ضمن كتاب نماذج من الفلسفة المسيحية في العصر الوسيط (أوغسطين- أنسيلم- توما الإكويني)، مكتبة الانجلو المصرية، القاهرة، ١٩٧٨م.

٣) بارندر (جفري): المعتقدات الدينية لدى الشعوب، ترجمة د/ إمام عبدالفتاح إمام، مراجعة د/ عبدالغفار مكاوي، سلسلة عالم المعرفة، ع(١٧٣)، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت ١٩٩٣م.

٤) دريدا (جاك): إستراتيجية تفكيك الميتافيزيقا، ترجمة وتقديم: عز الدين الخطابي، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، المغرب، ٢٠١٣م.

٥) شاحاك (إسرائيل): اليهود واليهودية (ثلاثة آلاف عام من الخطايا)، ترجمة ميادة العفيفي، ميريت للنشر والمعلومات، القاهرة، ٢٠٠٣م.

٦) قاسم (علي حسين)، الله والإنسان في الفكر اليهودي المعاصر، المكتبة المصرية، الإسكندرية، ٢٠٠٣م.

٧) كولر (جون): الفكر الشرقي القديم، ترجمة كامل يوسف حسين، مراجعة د/ إمام عبدالفتاح إمام، سلسلة عالم المعرفة، عدد(١٩٩)، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ١٩٩٥م.